
إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ
الإسلام
لأبي حمزة الأنصاري
بيت المقدس



1441 هـ 2019 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

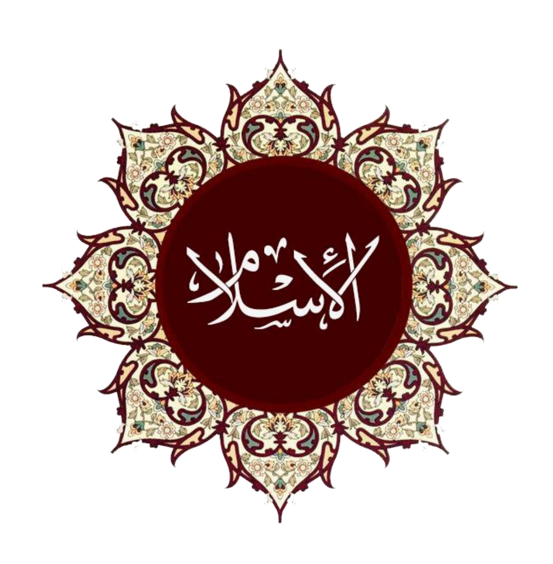
بيت المقدس

إن الديـن عنـد اللّٰـه الإسلام

كتبه العبد الفقير إلى عفو ربه

أبو حمزة الأنصاري[1]

في غُرة شعبان سنة 1437 هـ



بيت المقدس

[1]هو الرجل الثاني في تنظيم "المرابطون" المبايع لقاعدة الجهاد (الناشر).

الفهرس

المبحث الأول :سُنَّةُ اللهِ تعالى مع أهلِ الحقِ وأهلِ الباطل 5

المبحث الثاني: مباديءُ الحِوار 10

المبدأ الأول : الالتزامُ بالجدال بالحُسنى 10

المبدأ الثاني : الالتزامُ بالقضيةِ محلِّ البحث 11

المبدأ الثالث : الإتيانُ بالبرهانِ على كل دعوى.. 12

المبدأ الرابع : اتباعُ منهج القرانِ والسُنة.. 13

المبدأ الخامس : نبذُ التقليد... 14

المبحث الثالث: الحُجج الإلهية 16

1. الفِطرة... 16

2. العقل 17

3. الآَياتُ الكونية 18

4. الحُجة الرسالية 18

المبحث الرابع: الناسُ بين الإيمانِ والكُفر 21

المبحثُ الخامس: حقيقةُ دينِ الإسلام 27

المبحث السادس: إبطالُ الإلحاد 53

المبحثُ السابع: إبطالُ الكُفر.. 57

المبحثُ الثامن: إبطالُ شركِ عُباد الأصنام 61

المبحثُ التاسع : إبطالُ شركِ النصارى 66

المبحثُ العاشر: الدعوةُ والعودةُ إلى الله تعالى 92

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المبحث الأول :سُنَّةُ اللهِ تعالى مع أهلِ الحقِ وأهلِ الباطل

في لغةِ العربِ : السُنَّةُ هي الطريقةُ والسِيرةُ (سواءَ كانت حسنةً أم سيئة) ـ وسُنَّةُ اللهِ تعالى هي أحكامُه ـ وسُنَّةُ النبي ﷺ هي ماوردَ عنه ممَّا لم يأتِ في القرآنِ الكريم .

إنَّ سنةَ التعاملِ مع أهلِ الحقِ وأهلِ الباطلِ تتكونُ من ثلاثةِ عناصر :

العنصرُ الأول : المسلِمون المتمسكون بدينِهم ينصرُهُم اللهُ تعالى على أعدائِهم .

إذا تمسكَ أهلُ الحق بدينِ اللهِ تعالى واعتصموا بحبلِه ، يُؤيدهم اللهُ بنصره ويُنجّيهم بفضلِه ورحمتِه ، وإن كانوا أذلةً مُستضعفين ، ويُهلكُ أعداءَهم بحولِه وقوتِه ، وإن كانوا أكثرَ من الرملِ والحصى ، ومهما بلغتْ قوتُهم وعتادُهم .

قال تعالى : ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح 22 ـ 23] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله: "يقولُ عز وجل مُبشرًا لعباده المؤمنين بأنَّه لو ناجزهُم (أي لو قاتلَهُم) المشركون لنصرَ اللهُ رسولَه وعِبادَه المؤمنين عليهم ، ولا نهزم جيشُ الكُفرِ فارًا مُدبرًا لا يجدون وليًا ولا نصيرًا لأنَّهم مُحاربون لله ولرسولِه ولحزبِه المؤمنين ... { سُنَّةَ الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسُنَّةِ الله تبديلا } أي هذه سُنَّةُ اللهِ وعادتُه في خلقِه ... ما تقابلَ

الكُفرُ والإيمانُ في موطنٍ فيصلٍ إلاَّ نصرَ اللهُ الإيمانَ على الكُفرِ فرفعَ الحقَّ ووضعَ الباطلَ كما فعل تعالى يومَ بدرٍ بأوليائهِ المؤمنين ؛ نصرَهُم على أعدائِه من المشرِكين مع قِلةِ عددِ المسلِمين وعُدَدِهم وكثرةِ عَددِ المشرِكين وعُدَدِهم" أهـ.

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد 7].

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) كقولِه عزَّ وجل { ولينصرن اللهُ من ينصرُه } فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل" أهـ.

وقال : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران 123]

قال ابنُ كثير رحمهُ الله :"{ ببدرٍ } أي يوم بدر ... الذي أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَهُ ودمغَ فيه الشركَ وخرَّب محلَهُ وحزبَهُ ؛ هذا مع قلةِ عددِ المسلِمينَ يومَئِذ ... ولهذا قال تعالى مُمتنًا على عِبادِه المؤمنين وحِزبِهِ المتقين { وأنتم أذلة } أي قليلٌ عدَدِكُم لتعلموا أنَّ النصر إنَّما هو من عندِ اللهِ لا بكثرةِ العَدَدِ والعُددِ ... { فاتقوا الله لعلكم تشكرون } أي تقومون بطاعته" أهـ.

والخلاصةُ : أنَّ اللهَ تعالى ناصرُ رسولَه وعبادَهِ المؤمنين على الكُفَّارِ حتمًا لامحالة . ولنبحثْ في أنفسِنا : كيف ننصرُ اللهَ عز وجلَّ حتى ينصُرَنا على أعدائِنا .

العنصرُ الثاني: الكُفَّارُ يُعطيهُم اللهُ في الدنيا على قدرِ سَعيِهم ثمَّ مأواهم جهنمُ في الآخرة .

الكُفَّار قد يفعلون أعمالًا صالحةً كالتبرعِ لدورِ الأيتامِ وقد يبتكرون اختراعاتٍ مفيدةٍ كالكومبيوتر ، فيعطيهُم اللهُ جزاءَهم في الدنيا ، ولكن ليس لهم في الآخرةِ نصيب .

إنَّ الناسَ اليوم تتشكك : هل معقول أنَّ من فعلَ كُلَّ هذا الخير يدخلُ النارَ ؟

ونقولُ : نعمْ يقينًا ، هذا هو ميزانُ الحقِّ جلَّ وعلا . فاللهُ أعطاهُم جزاءَهُم في الدنيا

(مالًا /أو شُهرةً / أو جاهًا) . والقولُ بخلافِ ذلك تكذيبٌ للقرآنِ الكريم ، فانتبه .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران 145] .

قال ابنُ كثير رحمةُ الله : "أي من كان عملُه للدنيا فقط ناله منها ما قدَّره الله له ولم يكنْ له في الآخرةِ من نصيب ، ومن قصدَ بعملِهِ الدارَ الآخرة أعطاهُ اللهُ منها وما قسمَ له في الدنيا ... { وسنجزي الشاكرين } أي سنُعطيهِم من فضلِنا ورحمتِنا في الدنيا والآخرةِ بحسب شُكرِهم وعَملِهم أهـ.(أي سيُعطي اللهُ المسلمينَ في الدنيا أيضًا)" .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران 196 ـ 197] .

اللهُ تعالى يخاطبُ بهذه الآية من يتشككُ ويقولُ : الكُفَّار في حضارةٍ وعلو وعندَهُم كذا وكذا. قال ابنُ كثير رحمةُ الله : "لا تنظرْ إلى ما هؤلاءِ الكُفَّارِ مُترفون فيه من النعمةِ والغبطةِ والسرورِ، فعمَّا قليلٌ يزولُ هذا كلُّهُ عنهم ويُصبحونَ مُرتهنينَ بأعمالِهِم السيئة ، فإنَّما نمُدُ لهم فيماهُم فيه استدراجًا ، وجميعُ ما هُم فيه { متاعٌ قليل ثم مأواهُم جهنمُ وبئس المهاد }" أهـ.

العُنصر الثالث : المسلِمون الخاذلون لدين الله تعالى لاينصرُهُم الحقُّ جلَّ وعلا .

* إذا ضعُفَ إيمانُ المسلِمين ولهثُوا وراءَ شهواتِهم وملذاتِهم ، وأهملوا الواجباتِ الشرعية ، واتبعوا سَنَنَ من كان قبلهم ، تَرَكَهُم اللهُ تعالى لأنفسِهِم ولا ينصرُهُم ، لأنَّ الله تعالى وعدَ بالنصرِ لمنْ ينصرُ دينَه . وهذا أيضًا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين إذ لو نصرَهم وهم على تلك الحالةِ ، لتمادَوا في غيّهم حتى يصلوا إلى الكُفر فينالهُم جزاءُ الكافرين ، والله تعالى أعلم .

* **والسؤالُ الآن** : ماهو حال المسلِمين اليوم ؟ وماهي السُنَّةُ الماضيةُ فيهِم ؟

إنَّ حالَ المسلِمين اليوم يُبكي العيونَ ويُدمي القلوبَ ، ومن أهمِ مظاهرُ ذلك :

ـ عزلُ الشريعةِ عن الحُكمِ والتحاكُمِ .

ـ انتشارُ البدعِ والشركِ والمخالفاتِ الشرعيةِ حولَ قبورِ الأولياءِ بزعمهم .

ـ تخلُفٌ في شتى مجالات الحياة .

– انتشارُ الخُرافاتِ والبدعِ .

– انتشارُ المذاهب الهدَّامة كالاشتراكيةِ والشيوعية والرأسمالية والعلمانية .

– ازديادُ الفُرقةِ والخِلافِ بين المسلِمين .

ـ تفشي التبرجِ والعُري والخلاعةِ والفجورِ بين النساء .

ـ تفشي الميوعةِ والتشبُهِ بالنساء بين أشباهِ الرجالِ ، ولارجال .

– ضياعُ شبابِ الأمةِ بين الدُخانِ والمخدراتِ والخمور .

–كثرةُ الزنا وانتشارُ اللواطِ والسِحاقِ ، عياذًا بالله تعالى .

– سيلٌ جارفٌ من الكُتبِ والأفلامِ والمسلسلاتِ والأغاني والمسرحياتِ ، يعرضُ كلَّ ما يُدمرُ الأخلاقَ ويذبحُ الفضيلةَ ، بل ويُنكرُ ويستهزئُ بالثوابتِ الدينيةِ تحتَ ستارِ حُريَّةِ الرأيِ والفِكرِ والإبداع !!! (فكلُ من يريدُ العبثَ بالدينِ يستترُ خلفَ هذا الستار) .

ـ ووصلتِ الأمةُ إلى حالةٍ من الهوان لم تُدرِكْها قط مُنذُ صدرِ الإسلامِ ، حتى تلاعبَ الأعداءُ بها كما يلعبُ الصبيانُ بالكرة ، وصار الاستهزاءُ بالمسلِمينَ وبدينهِم وبنبيهِم يملأُ الآذانَ رغمَّ أنَّهُم واحدٌ ونصفْ مليارٍ من البشر !! ولكنهم غُثاءٌ كغثاءِ السيلِ كما أخبرَ الرسولُ ﷺ .

ـ لقد أصبحتْ أُمةُ الإسلامِ أضعفَ أُممِ الأرض وصارتْ في ذيلِ الأُممِ في كُلِ مجالاتِ الحياة ، وأحاطَ بِهِمُ الكُفَّارُ من كل جانب ، واُستبيحتِ الدماءُ المسلمةُ رخيصةً في كل بقاعِ الدنيا ، وأضحى المسلِمون يتسولونَ المعوناتِ من الشرقِ والغربِ ، ولاحولَ ولاقوةَ إلا بالله .

ـ وهذا في الحقيقةِ : يُعتبرُ نجاحٌ ساحقٌ لأعداءِ الإسلامِ في تدميرِ أُمتِنا ، ولاريب في ذلك!!

ـ فماذا تتوقعون ؟ هل تتوقعون أن ينصرَ اللّهُ أُمةً ، خذلتْ دينَه واتخذتْ كتابَه وراءَها ظِهريًا ، وشرَّقت وغرَّبت وراءَ كُلِ ناعقٍ ؟ من يُجيب ؟

والجواب كما عرفتُم في سُنَّةِ اللهِ تعالى فيمنْ يخذلُ دينَه ، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تبديلًا ، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تحويلًا .

المبحث الثاني: مباديءُ الحِوار

المقصود هو مباديء الحوار عمومًا ، سواء كانت بين المسلمين بعضهم وبعض أو بين المسلمين والكُفار .

المبدأ الأول : الالتزامُ بالجدالِ بالحُسنى

قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل 125].

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى آمرًا رسولَه محمدًا ﷺ أن يدعوَ الخلقَ إلى الله (بالحِكمة) ... وهو ما أَنزلهُ عليهِ من الكتابِ والسنة (والموعظةِ الحسنة) ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ؛ ذكِرهُم بها ليحذروا بأسَ اللهِ تعالى { وجادلهُم بالتي هي أحسن } أي من احتاج منهم إلى مُناظرةٍ وجِدالٍ فليكُن بالوجهِ الحسنِ برفقٍ ولينٍ وحُسنِ خِطاب ... { إنَّ ربك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله } أي قد عَلَمَ الشقيُ منهم والسعيدُ وكتبَ ذلك عندَهُ وفرغَ منهُ ، فادعُهُم إلى اللهِ ولا تذهبْ نفسُك على من ضلَّ منهُم حسرات فإنَّه ليس عليك هُداهُم إنَّما أنت نذير ، عليكَ البلاغ وعلينا الحساب" أهـ.

والخُلاصة من هذا الكلام : أنه لابد أن نلتزمَ أثناءَ الحوارِ بالجِدالِ بالحُسنى . فالقضيةُ مفروغٌ منها ، فيجبُ أن نفعلَ ماأوجبَهُ اللهُ علينا ولاشأنَ لنا بمن ضلَّ أوِ اهتدى .

المبدأ الثاني : الالتزامُ بالقضيةِ محلِّ البحث

فمثلًا : إذا اختلفنا مع النصارى حول أُلوهية السيد المسيح عليه السلام ، تجدُهُم يعترضونَ تهكُّمًا بأنَّ رسولَ الإسلامِ تزوجَ من السيدةِ عائشةﷺ وعمرُها تسعُ سنوات !! فهذا ينقلُكَ من قضيةٍ إلى قضيةٍ أُخرى لتعجيزِك كما يظُنُ .

ونحنُ نقولُ له : ولوِ افترضْنا ذلك : هل هذا يُثبتُ لكم أُلوهية السيدَ المسيح عليه السلام؟!

وهل ذلك يَقدحُ في رسالةِ سيدنا مُحَّد ﷺ أو يُبطلُ دعوتَه إلى التوحيد ؟!

ثُم ماذا تُنكرونَ من ذلكَ الزواجِ الشرعي ؟! فلم يفرضْ عليك أحدٌ أنْ تتزوجَ بنتَ تسعِ سنوات ؟ فلماذا تُنكر على غيرك ؟

وهل ذلك الزواجُ أفضل أم زنا المحارمِ الذي أَثبتمُوه لرسولِ الله لوطٍ عليه السلام مع ابنتيهِ في كتابِكم المقدس بزعمِكم ، وحاشاهم من ذلك الإفكِ المبين ؟

وخلاصة هذا الكلام : أنَّهُ يجب ألاَّ نحيدُ عن القضيةِ محلِّ البحثِ إلى قضايا فرعيةٍ

أُخرى ، فهذا يُشتت الفِكرَ ، ويُبعدُ الخَصمانِ عن الوصولِ للحق . إذا كان الوصولِ للحقِ هو مرادُهما .

المبدأ الثالث : الإتيانُ بالبرهانِ على كل دعوى

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل 64] .

فاللّهُ تعالى يُعلمُنا بهذا السؤال : (ءإله مع الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "أي هو الذي بقدرتِه وسلطانِه يبدأ الخلقُ ثم يُعيده ... { ومن يرزقكم من السماء والأرض } أي بما يُنزّل من مطر السماء ويُنبتُ من بركاتِ الأرض ... ولهذا قال تعالى { ءإله مع الله } أي ءإلهٌ مع الله فعل هذا ، وعلى القول الآخر : ءإلهٌ مع الله يُعبد ؟ { قل هاتوا بُرهانكم } على صحةِ ما تدَّعونه من عبادة آلهةٍ أُخرى { إن كنتم صادقين } في ذلك ، وقد عَلِمَ أنَّه لا حُجة لهم ولا برهان" أهـ.

وهذا مبدأٌ جليلٌ ومن أهمِّ المباديء . وكلُّ فردٍ من أهلِ الحوارِ يُلزِم نفسَهُ ويُلزِمُ خِصمَهُ أن يأتيَ بالبُرهانِ على كُلِّ دعوى إن كانَ صادقًا في دعواه . فليس معقولًا أن تجلسَ الناسُ للحوار وكلُ فردٍ يقولُ مايشاء، لابد أن نكونَ مُتفقين ابتداءً على أنَّ كلَّ فردٍ له دعوى لابد أن يأتيَ بالبرهان على دعواه .

وهذه الطريقةُ تُعجِّز الخِصمَ إن لم يكنْ معهُ دليل ، والسرُ في ذلك أنَّ الخصمَ إذا لم يكن معهُ دليل ويقولُ كلامًا في الهواء ، سينكشفُ مباشرةً . كما في الآية السابقة ، فلا برهانَ أصلًا على عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى !!!

المبدأ الرابع : اتباعُ منهجِ القرانِ والسُنة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: 40] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "أي من لم يهدِهِ اللهُ فهو هالكٌ جاهلٌ حائرٌ بائرٌ كافر، كما قال تعالى (من يُضلل اللهُ فلاهاديَ له) ... وهذا في مُقابلةِ ماقال في مَثلِ المؤمنين (يهدي اللهُ لنورهِ من يشاء) " أهـ.

وبوضوحٍ نقولُ : أنَّه لابد من اتباعِ منهجِ الإسلامِ ذاتِهِ في شرحِ عقائدِه وإبطالِ عقائدِ أهلِ الضلالِ ، إذا كان فيه قضية معينة ، والإسلام له فيها منهج ، فلا أترك منهج الإسلام وأذهبُ إلى مناهجٍ فلسفيةً أو كلامٍ جدليّ عقيمٍ لأُثبتَ تلك القضية . فالعيبُ فينا ؛ إذ لم ندرس هذا المنهج الذي أثبت الله تعالى به تلك القضية .

فالتزمْ بمنهجِ الله ، هداك الله تعالى . انظر مثلًا : كيف تعامل القرآنُ مع النمرودِ حين ادَّعى أنَّه يُحي ويُميت . وإنِّي لعلى ثقةٍ بأنَّه ليس بعدَ كلامِ اللهِ حُجةٌ ، وبأنَّه من لم يهتدْ بنورِ الوحيّ فهو عن غيرهِ أعمَّى وأضلُ .

المبدأ الخامس : نبذُ التقليد

قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف 3] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "قال تعالى مُخاطبًا للعالَمَ { اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم } أي اقتفوا آثار النبيِّ الأُميّ الذي جاءكم بكتابٍ أُنزل إليكم من ربِّ كُلِّ شيءٍ ومليكِه { ولا تتبعوا من دونه أولياء } أي لا تخرجوا عما جاءَكم به الرسولُ إلى غيره فتكونوا قد عدَلْتُم عن حُكمِ الله إلى حُكمِ غيره { قليلًا ما تذكرون }" أهـ.

وهذه الآية تُثبت أنَّ اتباعَ ما أنزلَهُ اللهُ تعالى على رسولِه ﷺ هو الأصلُ الذي ينبغي ألاَّ نحيدَ عنه أبدًا ، لأننا مأمورونَ بذلك ، فمحلُّ النورِ والهدايةِ هو النصُّ الشرعيُّ من الكتابِ والسُنةِ، وأرجو أن يكون ذلكَ مفهومًا للجميع .

والناس عادةً ثلاثُ شرائح : العلماء (المجتهدون) وطلبةُ العلم (الدارسون للعلوم الشرعية) والعوام (ليسوا بعلماء ولاطلبة علم) .

- فالعالِم يجتهدُ بنفسه للوصولِ إلى الحُكمِ الشرعي.
- وطالبُ العلمِ يسألُ عن الأدلة الشرعية ويُرجحُ بين الأقوالِ المتعددة، فإن عجز فيجوزُ له التقليد. ولايجوزُ أن أكون قادرًا على استخراجَ الحُكمِ الصحيحِ ، وألجأُ إلى التقليد ، لأنَّ الأصلَ هو اتباعِ ماأنزله الله تعالى : بالاجتهادِ أولًا ثُم السؤالِ عن الأدلةِ ثانيًا ثم التقليدِ ثالثًا حسبُ درجة الاستطاعةِ . (والبعضُ يُجيزُ التقليدَ على كلِ الأحوالِ ، بل يُوجبه ، وهذا خطأ) .

- والعاميُ يُقلد عالمِا من العلماءِ لعجزه عن كلِّ ذلك .

والتقليدُ هو اتباعُ قولِ القائلِ دونَ العلمِ بالدليلِ الذي يعتمدُ عليه (الحُكم النهائي دون السؤالِ عن الدليل الشرعي) ، مثلُ اتباعِ مذهبِ الشافعيِّ رحمةُ الله تعالى في القضايا الفقهية.

وإن كان التقليدُ يجوزُ في الأمورِ الفقهيةِ عند العجزِ ، فهو لا يجوزُ قط في أساسِ المِلَّةِ الإسلاميةِ (عبادةُ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له) ، بمعنى أنَّه لا يصحُ أن يقولَ أحدٌ :

أنا مُسلمٌ لأنَّ أبي كان مُسلمًا (أي هو لايفهم الإسلام) !!!

الاقرارُ الظاهريُ باللسان ينفعُكَ فقط لكي تكونَ في تعدادِ المسلمين في الدنيا. أمَّا الإيمانُ الحقيقي عند الله تعالى ، فهو نافعٌ لكَ في الآخرةِ من ناحيةِ ، وشرطٌ لقبولِ سائرِ أعمالِكَ من ناحيةٍ أخرى كالصلاة والزكاة وغيرِها . وأركانُ الإيمانُ الحقيقيُ هي الإقرارُ والتصديقُ بالقلبِ وعملُ القلب كالخشيةِ والخشوعِ والتوكلِ ... ، وإقرارُ اللسانِ بشهادةِ الحقِ ، وعملُ الجوارحِ بآداءِ الفرائضِ واجتنابِ المحرَّماتِ . والتصديقُ يلزمُ له فهم التوحيد ، ولو إجمالًا (المعنى المجمل للتوحيد دون أي تفصيل) ، ويستحيل أن يُصدق القلب بشيء لايفهمُهُ ولايعرِفُهُ . مثال : قلتُ لك جملة باللغةِ الأسبانية ، وقلتُ لك : صدِّق هذا الكلام . فلن تستطيعَ لأنكَ لاتفهمها أصلًا ، فكيف تُصدقُها ؟ وهذا له بحثٌ مستقلٌ إن شاءَ المِلِكُ .

المبحث الثالث: الحُجج الإلهية

في لغة العرب : الحُجَّةُ : الدليلُ والبرهان أو مادُوفِع به الخصم (أي أنَّ الكلمة تُستخدم للحقِ والباطلِ) ، والتفريقُ بينهما يكونُ بالقرائنِ أو بسياقِ الحديثُ .

والحُججُ التي يصح الاستدلالُ بها أربعة : الفِطرة والعقل والآياتُ الكونية والحُجَّةُ الرسالية .

1. الفِطرة

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم 30] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقولُ تعالى فسدِّد وجهكَ واستمرَ على الذي شرعهُ الله لكَ من الحنيفيةِ ملةِ إبراهيمَ الذي هداك اللهُ لها وكمّلها لكَ غايةَ الكمالِ ، وأنتَ مع ذلك لازمٌ فِطرتِكَ السليمةِ التي فطرَ الخلقَ عليها ، فإنّه تعالى فطرَ خلقَهُ على مِعرفتِهِ وتوحيدهِ وأنَّهُ لاإلهَ غيرَهُ ... وفي الحديث (إنِّي خلقتُ عبادي حُنفاء فاجتالتهُم الشياطينُ عن دينِهم) ... اللهُ تعالى فطرَ خلقَه على الإسلامِ ثم طرأَ على بعضِهِم الأديانُ الفاسدةُ كاليهوديةِ والنصرانيةِ والمجوسية ... {لا تبديلَ لخلقِ الله } ...معناه لا تُبدلوا خلقَ اللهِ فتُغيروا الناسَ عن فِطرتِهم التي فطرهُم اللهُ عليها ... وقال البخاري ... أنَّ أبا هريرةَ ﵁ قال : قال رسولُ الله ﷺ : "ما من مولودٍ يولدُ إلا على الفِطرةِ فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء ، هل تُحسونَ فيها من جدعاء"، ثم يقول { فطرتَ الله التي فطر الناس عليها } ... (ذلك الدينُ القيم) أي التمسك بالشريعة والفِطرة السليمة هو

الدينُ القويمُ المستقيم ، (ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون) أي فلهذا لا يعرفُهُ أكثرُ الناسِ ، فهم عنهُ ناكبون" أهـ.

فالأصلُ أنَّ البهيمةَ تلدُ بهيمةً مثلَها كاملةَ الأعضاءِ (جمعاء) ، ولايكونُ فيها شيءٌ مقطوع (جدعاء) . فكذلك المولودُ يولدُ على التوحيد ، والتغييرُ يأتي من خارجِه .

2. العقل

قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك 10 ـ 11] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "وهكذا عادوا على أنفسهِم بالملامةِ وندمُوا حيث لا تنفعُها الندامةَ فقالوا { لو كُنا نسمع أو نعقل ما كُنا في أصحاب السعير } أي لو كانت لنا عقولٌ ننتفع بها أو نسمعُ ما أنزله الله من الحقِّ لَما كُنَّا على ما نحن عليه من الكُفر باللهِ والاغترارِ به ، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ماجاءتْ به الرُسلُ ، ولا كان لنا عقلٌ يُرشدُنا إلى اتباعِهِم ... { فاعترفوا بذنبهم فسُحقًا لأصحاب السعير }" أهـ.

وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج 46] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ أفلم يسيروا في الأرض } أي بأبدانِهم وبفِكرهم أيضًا ... أي فانظروا ما حلَّ بالأُمم المكذبة من النِقم والنَكال { فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها } أي فيعتبرون بها { فإنَّها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في

الصدور} أي ليس العَمى عَمى البصرِ، وإنَّما العَمى عَمى البصيرةِ ، وإن كانت القوةُ الباصرةُ سليمةً فإنَّها لا تنفُذُ إلى العِبر ولا تدري ما الخبر" أهـ.

3. الآياتُ الكونية

قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران 190] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "أي هذه في ارتفاعِها واتساعِها وهذه في انخفاضِها وكثافتِها واتضاعها وما فيهما من الآياتِ المشاهدةِ العظيمةِ من كواكبٍ سياراتٍ وثوابتٍ وبحارٍ وجبالٍ ... ونباتٍ وزروعٍ وثمارٍ ... { واختلافِ الليلِ والنهار} أي تعاقُبُهُما وتقارضُهُما الطول والقصر ... وكلُ ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليم ... { لآياتٍ لأولي الألباب } أي العقولُ التامةُ الزكيةُ التي تُدرك الأشياءَ بحقائِقها" أهـ.

التعاقب : هذا يأتي وراء ذلكَ ـ والتقارض هو التبادل .

4. الحُجة الرسالية

قال سبحانه : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء 165] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : أي يُبشرون من أطاعَ اللهَ واتبع رضوانَه بالخيرات ويُنذِرون من خالفَ أمرَه وكذَّب رُسلَه بالعقابِ والعذابِ ...{ لئلا يكونَ للناسِ على الله حُجةٌ بعد الرُسلِ وكان اللهُ عزيزًا حكيمًا } أي أنَّه تعالى أنزلَ كتبَه وأرسلَ رُسلَه بالبِشارةِ والنَذارةِ وبيَّن ما يُحبُه ويَرضاهُ ممَّا يكرههُ ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذرٍ عُذر أهـ.

* والحُجةُ الرساليةُ آخر حُججِ الله تعالى ،وليست هي الحُجةُ الوحيدة . ولقد أوجب الله تعالى العذاب بعد مُخالفةِ الحُجةِ الرساليةِ ، ولكن هذا لا يلغي الحُجج قبلها أبدًا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء 15] .

* ولا شك أنَّه من المفروضِ أن تكونَ الحُجةُ الرساليةُ مُتفقةً مع سائرِ الحُجج ، باعتبارِ أنَّهم جميعًا من ربٍ واحدٍ (فلا تناقض قط بين الحُجج) .

مسألة : إثباتُ أنَّ كلامًا معينًا هو من عند اللهِ تعالى :

لقد وضع القرآنُ الكريمُ مقاييسَ لإثباتِ أنَّ كلامًا معينًا هل هو من عند الله أم من عندِ غيرِ الله ، ومن ذلك : الإعجازُ للبشرِ والخلوُ من التناقض (وهي مقاييسٌ محايدةٌ لاتُحابي أحدًا) .

الإعجازُ للبشرِ :

قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء 88] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "نبَّه تعالى على شرفِ هذا القرآن العظيم ، فأخبرَ أنَّه لو اجتمعت الإنسُ والجنُ كلُّهم واتفقوا على أن يأتوا بمثلِ ما أنزلَه على رسولِه لَما أطاقوا ذلك ولَما استطاعوه ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإنَّ هذا أمرٌ لايُستطاع" أهـ.

وخُلاصةُ هذا المقياس : أنَّ الكلامَ المعجِزَ للبشرِ هو من عند الله .

الخلوُ من التناقض :

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء 82] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ ولو كان من عندِ غيرِ الله } أي لو كان مُفتعلاً مُختلقًا كما يقولُه من يقولُه من جهلةِ المشرِكين والمنافقين في بواطِنِهم { لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا } أي اضطرابًا وتضادًا كثيرًا ، أي وهذا سالمٌ من الاختلافِ فهو من عند الله" أهـ.

وخلاصةُ هذا المقياس : أنَّ الكلامَ المتناقضَ هو من عندِ غيرِ الله تعالى . وهذا الكلام سوف نحتاجُه عند الحُكمِ على كُتبِ أهلِ الكتابِ المحُرَّفةِ ، التي يدَّعي أصحابُها أنَّها من عندِ اللهِ تعالى .

المبحث الرابع: الناسُ بين الإيمانِ والكُفر

انقسامُ الناسِ إلى مؤمنٌ وكافر :

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن 2] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "أي هو الخالقُ لكم على هذه الصفة ، وأراد منكُم ذلك ، فلابد من وجودِ مؤمنٍ وكافرٍ أهـ. وهذه القسمةُ ينبغي أن تكونَ حاضرةٌ في ذهنِ كُلِّ مسلم " .

ولقد عالج القرآن الكريم قضيةَ الفصلُ بين الإيمانِ والكُفرِ على محورين :

المحورُ الأول : إثباتُ الإسلام : وهو ماجاءت به الرُسل من عبادة الله وحده لاشريك له ، ويشتمل على الإيمانِ بأنَّه لا إله إلا الله (الإيمان بالربوبيةِ والأُلوهيةِ والوحدانية) ، والإيمانُ بالرسولِ المرسلِ من اللهِ تعالى ، وهو في حالتِنا سيدنا مُحَّمد ﷺ .

المحورُ الثاني : إبطالُ الكُفر : وهذا مُتمِمٌ لإثبات الإسلام ، لكي تكتملُ لك الحقيقة .

* **الكُفرُ ثلاثةُ أصناف** :

(1) الكُفرُ بأصلِ الربوبية والأُلوهية (الفكرةُ غيرُ موجودة) ، ويُسمى الإلحادُ أي إنكارُ وجودِ اللهِ تعالى بالكُليَّة .

(2) الكُفرُ بالإله الحق ، (عدم اثبات الربوبية والإلوهية للهِ عزَّ وجل) ومن ذلك : ادعاءُ الربوبيةِ : كفرعونَ والنمرودَ ، عليهما لعائنُ الله تعالى إلى يومِ القيامة ـ أو الزعمُ بأنَّ ذواتٍ

مخلوقةٍ هي الربُّ ، ومن ثمَّ عبادتُها من دون الله تعالى ، كعِبادة النارِ والكواكبِ والبقر ...الخ .

(3) الكُفرُ بالوحدانيةِ ، وهو معرفة الله عز وجلَّ ، مع إثباتُ الشريكِ وعبادتُه مع اللهِ . تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، ويُسمى الشِركُ (اعتقادُ تعددِ الآلهةِ) .

ومن صور الشركِ ما يلي:

ــ الثنوية : اعتقدوا للوجود خالقين اثنين ، (إلهٌ للخير وإلهٌ للشر) . وهذا قليلٌ في الناس.

ـ الشريكُ في صورةِ (أصنامٌ اتخذوها شفعاءَ من دونِ اللهِ تعالى) : كما في قومِ نوحٍ وقومِ إبراهيم وقومِ رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ـ الشريك في صورةِ (ابنُ اللهِ) ، كقولِ اليهودِ : عزيرٌ ابن الله ، وقولُ النصارى : المسيحُ ابنُ الله ، وقولُ مُشركي العرب : الملائكةُ بناتُ الله .

الموالاةُ والمعاداة :

الإيمانُ بالله تعالى يقتضي البراءةُ من الكُفَّار وممَّا يعبدون من دون الله (كسلوكٍ عقائدي وسلوكٍ عملي) .

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ ... [الممتحنة 4] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : " (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) أي : وأتباعِه الذين آمنوا معَهُ (إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) أي : تبرأنا مِنكم (ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم) أي بدينكم وطريقكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) يعني وقد شُرِعت العداوةُ والبغضاءُ من الآن بيننا وبينكم ، ما دُمتم على كُفركم فنحن أبدًا نتبرأُ منكم ونَبْغَضُكُم (حتى تؤمنوا بالله وحده) أي إلى أن تُوحدوا اللهَ فتعبدوه وحدَه لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدونَ معه من الأندادِ والأوثان" أهـ.

حُكم الشخص المُعيَّن (بذاته) قبل دخولِ الإسلام

لقد ثبت بالقطع أنَّ كل من دانَ بغير(لا إله إلا الله) فهو كافرٌ في أحكامِ الدنيا ، كاليهود والنصارى وعبدة النيران والكواكب والأصنام والبقر ، سواء بلغته الحُجة الرسالية أم لا .

ولقد وجدتُ بعضَ طوائفِ من المسلِمين تحيدُ عن هذا الأصل المتين بسبب الجهلِ بالدينِ / أو التزييفِ المتعمَّدِ له من جانبِ دُعاةِ الوحدةِ الوطنيةِ (زعموا أنَّه لايليقُ تكفيرُ شُركاءِ الوطن) / أو الخوفِ من الغلو في التكفير (فذهبوا إلى عدمِ تكفيرِ الكفار) / أو الفهمِ الخاطيء لقضيةِ العُذرِ بالجهل (فاعتقدوا أنَّ العذر بالجهلِ يقتضي عدمَ تكفيرِ الكافرِ الأصلي حتى تُقام عليه الحُجة الرسالية ، ولهذا بحثٌ مستقلٌ إن شاء اللهُ تعالى) .

أولًا : الله تعالى أطلق حُكمَ الكُفرِ أو الشركِ قبل الحُجةِ الرسالية

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة 72ـ 73] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى حاكمًا بتكفيرِ فرقِ النصارى من الملِكية واليعقوبية والنسطورية ممَّن قال منهم بأنَّ المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا ، هذا وقد تقدم لهم أنَّ المسيح عبد الله ورسوله وكان أول كلمة نطلق بها وهو صغير في المهد أن قال (إنِّي عبد الله) ولم يقل إنِّي أنا الله ولا ابن الله ... وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته... { وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربِّي وربَكم إنَّه من يشرك بالله) أي فيعبدُ معه غيره { فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار}... { وما للظالمين من أنصار} أي وما له عند الله ناصرٌ ولا مُعينٌ ولا مُنقذٌ ممَّا هو فيه ... { لقد كَفَرَ الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة } ... المراد بذلك كُفَّارهم في قولِهم بالأقانيمِ الثلاثة ، وهو أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، تعالى الله عن قولِهم علوًا كبيرًا ... والطوائف الثلاثة ... تقول بهذه الأقانيم وهم مُختلفون فيها اختلافًا مُتباينًا ...وكلُ فِرقةٍ منهم تُكفِرُ الأُخرى ، والحقُّ أنَّ الثلاثةَ كافرةٌ ... نزلت في جعلِهِمُ المسيحَ وأُمَّهُ إلهين مع الله فجعلوا اللهَ ثالثُ ثلاثة بهذا الاعتبار ... { وما من إله إلا إله واحد } أي ليس متعددًا بل هو وحدَهُ لا شريك له ...{وإن لم ينتهوا عمَّا يقولون } أي من هذا الافتراءِ والكذبِ { ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ اليمٌ } أي في الآخرة من الأغلالِ والنَكالِ " أهـ.

الأقانيم : الأصول ، واحدها أقنوم . فالألوهيةُ عندَهُم مُقسَّمةٌ إلى ثلاثةِ أصول .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة 6] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى لنبيه ﷺ { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الذين أمرتُك بقتالِهم وأحللتُ لك استباحةَ نفوسِهم وأموالِهم { استجارك } أي استأمنك فأجبه إلى طلبته {حتى يسمعَ كلامَ اللهِ } أي القرآن تقرؤه عليه وتذكرُ له شيئًا من أمر الدين تقيم به عليه حُجةَ اللهِ { ثم أبلغه مأمنه } أي وهو آمنٌ مُستمرُ الأمانِ حتى يرجِع إلى بلادِه ودارِه ومأمَنِهِ { ذلك بأنهم قوم لا يعلمون } أي إنَّما شرعنا أمانَ مِثلَ هؤلاءِ ليعلموا دينَ اللهِ وتنشر دعوةُ اللهِ في عبادِه " أهـ.

استأمنك : أي طلب منك الأمان .

وقال البغوي رحمهُ الله : "ذلك بأنَّهم قوم لا يعلمون أي لا يعلمون دينَ اللهِ وتوحيدِه" أهـ.

قال تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف 40] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أي فلهذا كان أكثرهُم مشركين "أهـ.

.... تأمل سمَّاهم مُشركينَ رغم كونهم لايعلمونَ .

ثانيًا : العلماءُ يُطلقون حُكمَ الكُفرِ أو الشِركِ قبل الحُجةِ الرسالية

قال ابن تيمية رحمهُ الله : "وكذلك أخبر عن هود أنَّه قال لقومه : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ [هود 50] . فجعلهم مُفترينَ قبل أن يحكُم بحُكمٍ يخالفونه ، لكونهم جعلوا مع الله إلهًا آخر ، فاسمُ المشركِ ثبت

قبلَ الرسالةِ ، فإنَّه يُشرك بربه ويعدِلُ به ، ويجعلُ معه آلهةً أخرى ويجعل له أندادًا قبل الرسالة" أهـ.[2]

وقال ابنُ القيمِ رحمهُ الله : "الإسلامُ هو توحيد الله وعبادته لا شريك له ، والإيمانُ باللهِ ورسولهِ واتباعهِ فيما جاءَ به ، فما لم يأتِ العبدَ بهذا فليس بمُسلم ، وان لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافرٌ جاهلٌ ، فغاية هذه الطبقة أنَّهم كُفار غير معاندين وعدم عِنادِهم لا يُخرجُهُم من كونِهم كفارًا"أهـ.[3]

وقال أيضًا : "والله يقضي بين عبادِه يوم القيامة بحُكمه وعدله ، ولا يعذب إلا من قامت عليه الحُجةُ بالرُسلِ ، فهذا مقطوعٌ به في جُملةِ الخلق ، فأمَّا كون زيدٌ بعينه أو عمرو قامت عليه الحُجةُ أم لا ، فذلك ممَّا لا يُمكن الدخول بين اللهِ وبين عباده فيه ، بل الواجب على العبد أن يعتقد أنَّ كلَّ من دان بدينٍ غير الإسلام فهو كافر ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحُجةِ عليه بالرسولِ ، هذا في الجملة ، والتعيين موكول إلى علمِ الله وحُكمِهِ ، هذا في أحكامِ الثوابِ والعقابِ ، وأما في أحكامِ الدنيا فهي جاريةٌ على ظاهرِ الأمرِ" أهـ. [4]

وأُنبِّهُ إلى أنَّ القولَ بخلافِ ذلك يُدخل المرءَ في تكذيبِ القرآنِ الكريم ، أعاذنا الله تعالى وإياكم .

---

[2] مجموع الفتاوى : ج 20 ص 37) .

[3] طريق الهجرتين : ص 114) .

[4] طريق الهجرتين : ص 114)

المبحثُ الخامس: حقيقةُ دينِ الإسلام

اعلم يا عبدَ الله أنَّ كلمةَ التوحيدِ (لا إله إلا الله) هي الحقُّ الذي قامتْ عليهِ السماواتُ والأرضُ ، وبها أُرسلتْ جميعُ الرُسلِ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهم أجمعين ، وعليها انعقدَ الولاءُ والبراءُ ، ومن أجلها شُرعَ الجهادُ وسُلَّت السيوفُ حتى يكونَ الدينُ كُلهُ لله ، وعليها تُنصبُ الموازينُ يومَ القيامةِ ؛ فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السعير . وينبغي أن يُعلم أنَّ الإسلامَ بالمعنى العام هو دينُ اللهِ تعالى ، ومن ثمَّ فهو دينُ جميعِ الرُسل ، لكنَّه بالمعنى الخاص يُطلقُ على دينِ سيدنا محمدٍ ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء 25] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "فكلُ نبيٍ بعثهُ اللهُ يدعو إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له ، والفطرةُ شاهدةٌ بذلكَ أيضًا ، والمشركونَ لا بُرهان لهم ، وحُجتُهم داحضةٌ عندَ ربِهم ، وعليهِم غضبٌ ، ولهُم عذابٌ شديدٌ" أهـ.

قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران 19] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "إخبارٌ من اللهِ تعالى أنَّه لا دينَ عندهُ يقبلُهُ من أحدٍ سوى الإسلام ، وهو اتباعُ الرُسلِ فيما بعثهُمُ اللهُ به في كلِ حينٍ حتى خُتِموا بمحمدٍ ﷺ ... فمن لقيَ اللهَ بعد بعثةِ محمدٍ ﷺ بدينٍ على غيرِ شريعتِهِ فليسَ بمُتقبل" أهـ.

ولقد بيَّن القرانُ الكريمُ أنَّ أساسَ المِلةِ عندَ جميعِ الرُسلِ شيءٌ واحدٌ ، وهو (وجوبُ عبادةِ اللهِ وحدَه لاشريكَ له ، وتركِ جميعِ المعبوداتِ من دونِ الله). إنَّ رُسلَ اللهِ الكرامِ قد اختلفوا فيما بينهُم في التشريعاتِ الفرعيةِ فقط.

قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة 48] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "هي إخبارٌ عن الأممِ المختلفةِ الأديانِ ، باعتبارِ ما بعث اللهُ به رُسلَه الكرامِ من الشرائعِ المختلفةِ في الأحكامِ المتفقةِ في التوحيدِ ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال (نحنُ معاشرُ الأنبياء إخوةٌ لعلَّاتٍ دينُنا واحدٌ) يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كُلَّ رسولٍ أَرسلَه وضمَّنه كلَّ كتابٍ أَنزلَهُ ... وأما الشرائع فمُختلفةٌ في الأوامرِ والنواهي ... لِما لهُ تعالي في ذلك من الحِكمةِ البالغةِ والحُجةِ الدامغةِ "أهـ.

الإخوةُ لعلَّاتٍ : هم الإخوة لأبٍ واحدٍ وأمهاتٍ مُختلِفة .

والواجبُ أن نفهمَ حقيقةَ الإسلام ولو إجمالًا ، حتى نستوعبَ المقصودَ من دعوةِ الرُسل صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهم أجمعين ، ونستجيبَ لتلك الدعوةِ عن علمٍ ويقينٍ .

الإيمانُ بأنَّه لا إله إلا الله يشمل ثلاثَ قضايا : الإيمانُ بالربوبيةِ والأُلوهيةِ والوحدانية .

وسنشرحُ كُلًا منها بالتفصيل .

القضيةُ الأولى : الربوبية (وجودُ الربِ سبحانُه وتعالى)

معني الربوبية .

في اللغةِ : الربُّ هو المالكُ والسيدُ والمدبِّر والمربِّي والقيِّمُ والمنعِمُ . ولايُطلق بمفرده إلا على الله تعالى ، وإذا أُطلق على غيره أُضيف (كقولك : ربُّ البيت ، ربُّ الدابة) . وفي اصطلاحِ الشريعةِ : الربُ هو منْ لهُ الخلقُ والأمرُ ، أي هو الخالقُ للكائناتِ ومالكُها ، وصاحبُ الأمرِ النافذِ عليها والمدبِّر أمرَها .

قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف 54] .

أولًا : الخلق . ولهُ ثلاثةُ معانٍ :

ـ التقديرُ ، ومنه تقديرُ الأمرِ قبلَ تنفيذِه .

ـ إيجادُ الشيءِ من العدمِ بعد أن لم يكن موجودًا .

ـ ابتداعُ الشيءِ على غير مثالٍ سابق .

وبالخلقِ ، تنقسمُ الموجوداتُ إلى خالقٍ ومخلوق . إنَّ وجودَ اللهِ تعالى : ثابتٌ بالفِطرةِ والعقلِ والحُجةِ الرسالية .

الدليل الأول : الفِطرة

إنَّ وجودَ اللهِ تعالى مغروسٌ في نفوسِ البشر ، فالمرءُ يشعرُ بأنَّ فوقَ هذه المخلوقاتِ المحدودةِ خالقًا غيرُ محدودٍ يُدبِّر كلَّ شيء . وهذا الشعورُ يجدُهُ الإنسانُ في قرارةِ ذاتهِ ، دونَ تعلمٍ ولا توجيهٍ ولا تلقينٍ ولا إرشادٍ (كالجوعِ مثلًا) ، وهو الذي يُميِّزُ الإنسانُ من الحيوانِ .

الدليل الثاني : العقل

يدلُ العقلُ السليمُ على وجودِ اللهِ سبحانُه وتعالى وجودًا لا مجالَ معهُ للشكِ أو الترددِ .

فمجرد وجود هذه المخلوقات لهو أعظمُ دليلٌ على خالقِها / فضلًا عن الإتقانِ والإحسانِ في خلقِها / والتقديرُ المحكمُ الذي يجعلُ كلُ شيءٍ في توازنٍ مع سائرِ المخلوقاتِ (من حيثُ المكانِ والزمانِ والكيفيةِ والكميةِ) .

إنَّ العقلَ يمتلكُ كثيرًا من القُدراتِ : كالأحكامِ العقليةِ والاستدلالِ العقلي فضلًا عن الذاكرة وفهم الخطاب ....الخ .

الحُكمُ العقلي : هو إثباتُ شيءٍ لأمرٍ أو نفيهِ عنهُ بطريقِ العقلِ (وليس بالنصوص الشرعية). وذلكَ عن طريقِ البديهياتِ والمستحيلاتِ العقلية :

البديهيات : هي الأمورُ التي يُسلِّمُ بها جميعُ العقلاءِ ، كقولِنا الجزءُ أصغرُ من الكلِ ، وفاقدُ الشيءِ لا يُعطيه .

المستحيلات : هي الأمور التي لايُسلِّم بها جميع العقلاء ، كوجودِ الولدِ قبلَ أبيهِ .

فالحُكمُ العقلي يوجِبُ بأنَّ لكلِّ مخلوقٍ خالقٌ ولكلِّ صنعةٍ صانعٌ ، أي أنَّ مجردَ وجودِ المخلوقِ يدلُ على وجودِ خالقِه . وأضرب لك مثالين من الواقع :

مثال1: إنَّ الطفلَ الصغيرَ حين يرى لُعبَتَهُ قد تكسرتْ يسألُ (منْ الذي كسَّرَ لُعبتي؟) لأنَّ عقلَهُ يُوجبُ عليه بأنَّ لكلِّ فعلٍ فاعلٌ ، وهو لا يُصدقُ قط أنَّ لعبتَهُ تكسرتْ بلا سببٍ ، ولو دارَ ذلكَ الاحتمالُ بعقلهِ ، ماسألَ سؤالهُ أبدًا .

مثال 2: إذا وُجِدت حادثةٌ ولم يُعرف فاعلُها ، لايقولُ عاقلٌ قط : (ليس لها فاعل) وإنَّما يقولُ : (الفاعلُ مجهول) أي أنَّ من المؤكدِ أنَّ لها فاعلٌ ولكنَّه غيرُ معروفٍ .

الاستدلالُ العقلي :

إنَّ العقلَ يطرحُ سؤالين ويحاولُ الإجابةَ عليهِما هكذا :

السؤالُ الأولُ : ما طبيعةُ وجودِ هذه الكائناتِ على وجهِ الأرضِ ؟

إنَّ الكائناتَ من حولك كالإنسان والحيوان والنبات ، تتميزُ بأنَّها لم تكن موجودة ثم كانت ، ثم تصير غيرُ موجودةٍ مرةً ثانيةً ، وكذلك الكائناتُ التي يصعبُ رصدُ وجودِها لبُعدِها (كالكواكبِ والنجومِ) فإذا راقبتَ صفاتَها ، فستجدُها عُرضةً للتبدلِ والتغيرِ ، أي تتحولُ من النورِ إلى الظلامِ ، ومن الارتفاعِ إلى الانخفاضِ ، ومن الخروجِ من مكان والأفول في مكان آخر وهكذا .وهذا مايُسمونه : الحُدوثُ والفناءُ (أي وجودٌ يأتي بعد عدمٍ ويلحقُه عدم) .

السؤال الثاني : كيف وُجِدت هذه الكائناتُ التي تتميزُ بالحدوثِ والفناءِ ؟

أمامَنا ثلاثةُ احتمالاتٍ :

الاحتمالُ الأول : أن تكونَ هذه المخلوقاتُ قد وُجِدتْ بلا سببٍ !! بمعنى أن يتطورَ العدمُ إلى الوجودِ تطورًا ذاتيًا !! وهذا الاحتمال مُحال ، لأنَّ العقلَ يحكُم بأنَّ لكلّ فعلٍ فاعلٌ ، فضلًا عن أنَّ هذا لم يحدثْ قط ، ولا بُرهانَ عليهِ ، ومن يجرؤ على الادعاءِ بذلك، فليُرنا كيف يتطورُ العدمُ إلى الوجودِ تطورًا ذاتيًا .

الاحتمالُ الثاني : أن تكونَ هذه المخلوقاتُ قد وُجِدت بواسطةِ نفسِها أو بمَنْ هو مثلُها. وهذا الاحتمال مُحالٌ أيضًا ، لأنَّ كلَّ الكائناتِ المذكورةِ تتميزُ بالحدوثِ والفناءِ ، ومِن ثمَّ فهي لاتملكُ وجودَ نفسِها ، ومن ثمَّ يستحيلُ أن تهبَ الوجودَ لنفسِها أو لغيرِها ، لأنَّ فاقدُ الشيءِ لا يُعطيهِ ببداهةِ العقل . إنَّ الإنسانَ يعلمُ يقينًا ـ بلا ذرةِ شكٍ ـ أنَّه لم يُوجِدْ نفسُه ولم يُوجِدْ غيرَهُ .

الاحتمالُ الثالث : أن تكونَ هذه المخلوقاتُ قد وُجِدتْ بواسطةِ فاعلٍ موجودٍ ، لايسبقه عدم ولا يلحقُهُ عدم ، وهذا مايُسمونهُ : القِدمُ والبقاءُ ، وبالتالي يملكُ وجودَهُ ، ومِنْ ثمَّ فهو يستطيعُ أن يهبَ الوجودَ لغيرِه . وهذا الاحتمالُ هو الحق بلا جدال ، وهذا الفاعلُ هو اللّهُ سبحانهُ وتعالى ، واهبُ الوجودِ لكلِّ المخلوقات ، فاللهُم ثبّت قلوبَنا على دينِك .

الدليلُ الثالثُ : الحُجةُ الرِسالية

أولًا : إثباتُ أنَّ اللهَ وتعالى هو الخالقُ ، وأنَّ له القِدَمَ والبَقاء

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف 54] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يُخبرُ تعالى أنَّه خالقُ العالمِ سمواتِه وأرضِه وما بينَ ذلك في ستةِ أيام ... { يُغشي الليلَ النهارَ يطلبُه حثيثًا } أي يُذهبُ ظلامَ هذا بضياءِهذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكلٌ منهُما يطلبُ الآخرَ طلبًا حثيثًا أي سريعًا ... { والنجومَ مُسخراتٍ

بأمره } أي الجميعُ تحت قهرِهِ وتسخيرِهِ ومشيئتهِ ... { ألا لهُ الخلقُ والأمر } أي له الملك والتصرف { تبارك الله رب العلمين }" أهـ.

قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد 3] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "قال الإمام أحمد ...عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدعو عند النومِ : اللهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ وربَّ العرش العظيم (إلى قوله) أنتَ الأولُ فليسَ قبلكَ شيء وأنتَ الآخرُ فليس بعدكَ شيء ، وأنتَ الظاهرُ فليس فوقكَ شيء وأنت الباطنُ فليس دونك شيء ، اقضِ عنا الدين واغننا منَ الفقرِ" أهـ.

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص 88] .

هالك : أي قابلُ للهلاكِ أو مصيرُهُ للهلاك .

وقال ﷺ : كان اللهُ ولم يكن شيئًا معهُ (مُتفقٌ عليه) . وهذا في نفس المعنى .

ثانيًا : إثبات أنَّ المخلوقاتَ عاجزةٌ عن الخلقِ ، وتتميزُ بالحدوثِ والفناء .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج 73 ـ 74] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ يا أيها الناس ضُرب مثل } أي لما يعبدُه الجاهلون بالله المشركون به { فاستمعوا له } أي أنصتوا وتفهموا { إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له } أي لو اجتمع جميع ما تعبدونَ من الأصنامِ والأندادِ على أن

يقدروا على خلقِ ذُبابٍ واحدٍ ما قدروا على ذلك ... { وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنفذوه منه } ... بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومتِه والانتصارِ منهُ لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطِيب ... هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ... {ضعف الطالب والمطلوب } ... الطالبُ الصنم والمطلوبُ الذُباب ...{ ما قدروا الله حق قدره } أي ماعرفوا قدرَاللهِ وعظمتِهِ حينَ عبدوا معهُ غيرَه ...{ إنَّ الله لقويٌ } أي هو القوي الذي بقُدرته وقوتِهِ خلقَ كلَّ شيء ... { عزيز } أي قد عزَّ كلَّ شيءٍ فقهرَهُ وغلبَهُ" أهـ.

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان 1 ـ 2] .

قال ابنُ كثير رحمه الله : "يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجدَه بعد أن لم يكن شيئًا يُذكر لحقارتِه وضعفِهِ... (إنا خلقنا الإنسانَ من نطفةٍ أمشاجٍ) أي : أخلاط . والمشجُ والمشيجُ : الشيء الخليط ، بعضه في بعض ... (من نطفة أمشاج) يعني : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعدُ من طورٍ إلى طور ، وحالٍ إلى حال ، ولونٍ إلى لون ... (نبتليه) أي : نختبره ... (فجعلناهُ سميعا بصيرا) أي : جعلنا له سمعًا وبصرًا يتمكنُ بهما من الطاعةِ والمعصيةِ" أهـ.

ثالثًا : الحثُ على الاستدلالِ العقلي على الخلق

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور 35 ـ 36] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : أي أوُجِدوا من غير مُوجدٍ أم همْ أَوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل اللهُ هو الذي خلقَهم وأنشأَهُم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ، قال البخاري ... عن مُحَّد بن جبير بن مُطعم ، عن أبيه ﷺ قال ، سمعتُ النبيَ ﷺ يقرأُ في المغرب بالطورِ، فلمَّا بلغ هذهِ الآية { أم خُلقوا من غير شئ } كاد قلبي أن يطير ... { أم خَلقوا السمواتِ والأرضِ بل لا يوقنون } أي أهُم خلقوا السماوات والأرض ؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنَّه الخالقُ وحدَهُ لا شريك له أهـ.

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية 17 ـ 20] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى آمرًا عبادَهُ بالنظرِ إلى مخلوقاتهِ الدالةِ على قدرتهِ وعظمتهِ (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت) فإنَّها خلق غريب وتركيبها عجيب... (وإلى السماء كيف رُفعت) أي كيف رفعَها اللهُ عز وجل على الأرضِ هذا الرفعُ العظيمُ (وإلى الجبال كيف نُصبت) أي جُعلت منصوبةً ، فإنَّها ثابتةٌ راسيةٌ لئلا تميدَ الأرضُ بأهلِها ... (وإلى الأرض كيف سُطحت) أي كيف بُسطت ومُدَّت ومُهّدت . فنُبّه البدوي على الاستدلال بما يشاهدُهُ ... على قُدرةِ خالقِ ذلكِ وصانعِهِ وأنَّه الربُ العظيمُ الخالقُ المالكُ المتصرفُ ، وأنَّه الإلهُ الذي لايستحقُ العبادةَ سواهُ "أهـ.

ثانيًا : الأمر :

في لغة العرب : الأمرُ هو طلبُ انشاءُ فعلٍ في المستقبل ، من الرئيس للمرؤوس ، ويكون واجبُ التنفيذ .

وفي الاصطلاح : له الأمرُ أي له التصرُفُ ، ويشملُ الأمرُ الكوني والأمرُ التشريعي .

وبالأمرِ ، تنقسم الموجودات إلى خالقٍ آمرٍ ومخلوقٍ مأمور .

الأمرُ نوعان :

النوع الأول : الأمرُ الكوني .

وهو أنَّ اللهَ تعالى لهُ الأمرُ النافذُ على كلِّ المخلوقات . فالشمسُ مثلًا ، اللهُ تعالى هو الذي خلقَها وهو الذي يتحكَّم في كلِّ شيء فيها . وذلك الأمرُ يتميزُ بمايلي :

(1) هو نافذٌ حتمًا في الواقع ، والمكلَّفُ (الإنسُ والجنُ) لا يمكن أن يدفعَهُ عن نفسهِ أو عن غيرِه .

(2) العِلمُ به عن طريقِ الآياتِ الكونية أو التجاربِ العِلمية أو النصوصِ الشرعيةِ .

قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس 37 ـ 40].

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقولُ تعالى ومن الدلالةِ لهم على قدرتِهِ تبارك وتعالى العظيمة خلقُ الليلِ والنهارِ، هذا بظلامِه وهذا بضيائِه وجعْلهما يتعاقبان ... { نسلخ منه النهار} أي نصرِمُه منه فيذهبَ فيُقبلُ الليلُ ... { فإذا هم مُظلمون } ...{ لمستقرٍ لها } ... مُستقرها المكاني وهو تحت العرش ... منتهى سيرها وهو يوم القيامة ... { ذلك تقدير العزيز} أي الذي لا يُخالف ولا يُمانع { العليم } بجميعِ الحركاتِ والسكناتِ ...{ والقمر

قدَّرناه منازل } أي جعلناه يسير سيرًا آخر يُستدل به على مضي الشهور، كما أنَّ الشمسَ يُعرفُ بها الليلُ والنهارُ ... { لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر } ... لكلٍ منهُما حدٌ لا يعدُوهُ ولا يَقصُرُ دونَه ... { ولا الليلُ سابقُ النهار } لا ينبغي إذا كان الليلُ أن يكونَ ليلٌ آخر حتى يكونَ النهارُ...{ وكلٌ في فلكٍ يسبحون }" أهـ.

يتعاقبان : يأتي أحدهم بعد الآخر .

الصرمُ : هو القطعُ .

وقال أيضًا : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران 168] .

قال ابنُ كثير رحمه الله : "لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القُعود وعدمِ الخروجِ ما قُتلوا مع من قُتل ...(قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أي : إن كان القعود يَسلمُ به الشخصُ من القتلِ والموتِ ، فينبغي ، أنكم لا تموتون ، والموتُ لا بُدَ آتٍ إليكُم ولو كُنتمْ في بروجٍ مشيدة ، فادفعوا عن أنفسِكُم الموتَ إن كنتم صادقين ... نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي ابن سلول أهـ. وهذا يعني بوضوحٍ أنَّ أمرِ اللهِ لايُمكن دفعه".

النوع الثاني : الأمرُ التشريعي

* والمقصود بالأمرِ التشريعي هو أنَّ الله تعالى له وحده حقُّ التشريعِ المطلق للمُكلفين (الإنس والجن) . والمقصود بالمطلق هو الذي يكون بمحضِ المشيئةِ دون قيدٍ كإذنٍ أو حدٍ من غيره . إنَّ سنَّ التشريعاتِ (القوانين) إمَّا أن يكونَ مُطلقًا أو مُقيدًا ، ولا يوجد قِسمٌ ثالث .

وذلك الأمر يتميزُ بمايلي :

(1) هو واجبُ النفاذِ ، ولكنه ليس نافذًا حتمًا في الواقعِ ، فيُمكنُ للمُكلفِ أن يُطيعه أو يَعصاه ثم يُحاسبه الله تعالى يوم القيامة .

(2) العِلمُ به يكونُ عن طريق النصوص الشرعية فقط .

* والأمرُ الكوني والتشريعي مُتلازمان ؛ فالله تعالى الذي يتحكم في وجودك وموتك وكذا يتحكمُ في ضربات قلبك وعدد أنفاسك ، ألا يحقُّ له أن يتحكم في نظام حياتك بتشريعاته؟!

* والمخلوق يجوز له التشريع المقيَّد بإذن اللهِ وحدودِهِ فقط (أي بالشريعةِ الإسلاميةِ)، كالتشريعاتِ التنظيمية أو الإدارية ممَّا لايُخالِفُ الشريعةَ قط .

قال سبحانه: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف 40] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "إنَّ يوسفَ عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبةِ والدعاءِ لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثانِ التي يعبدها قومهما ... ثم بيَّن لهما أنَّ التي يعبدونها ويُسمونها آلهة إنَّما هو جهلٌ منهم وتسميةٌ من تلقاء أنفسِهم ... وليس لذلك مُستندٌ من عندِ اللهِ ...{ ما أنزل الله بها من سلطان } أي حُجة وبرهان ، ثم أخبرهم أنَّ الحُكمَ والتصرفَ والمشيئةَ والملكَ كُلَّه له وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ...{ ذلك الدين القيم } أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل

له هو الدينُ المستقيمُ الذي أمرَ الله به وأنزل به الحُجة والبُرهان والذي يحبُهُ ويرضاهُ { ولكن أكثر الناس لا يعلمون} أي فلهذا كان أكثرهم مشركين أهـ. والحُكم هاهنا عام ، يشملُ الأمرُ الكوني والتشريعي".

وقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة 31] .

وهؤلاءِ لم يخلقوا شيئًا ولم يدَّعوا السُلطةَ على الكونِ ، فماذا فعلوا حتى يُوصفوا بالأرباب ؟

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "روى الإمامُ أحمدُ ...عن عدي بن حاتمرضي الله عنه ... دخل على رسولِ الله ﷺ وفي عنقِ عدي صليبٌ من فضةٍ ، وهو يقرأ هذه الآية { اتخذوا أحبارهم ... } قال : فقلت إنَّهم لم يعبدوهم ، فقال (بلى إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم) ... ولهذا قال تعالى { وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا } أي الذي إذا حرَّمَ الشيءَ فهو الحرامُ ، وماحللهُ فهو الحلالُ ، وماشرعهُ أُتبع ، وماحَكَمَ به نفذ { لا إله إلا هو سبحانه عمَّا يُشركون } أي تعالى وتقدَّس وتنزه عن الشُركاءِ والنُظراءِ والأعوانِ والأضدادِ والأولادِ لا إلهَ إلا هو ولا ربَّ سواه" أهـ.

الفرق بين الربّ والعبد

الربّ: يتميز بالقدرةِ على الخلقِ ، وبالقِدمِ والبقاءِ ، ويمتلك الأمرَ النافذَ على كُل المخلوقات ، وله حقُّ التشريعِ المطلقِ . فمن كان كذلك يكون ربًا ويستحقُ العِبادة ، فمن يقبل التحدي ؟

العبد : يتميز بالعجز عن خلق أحقر المخلوقات ، وبالحدوثِ والفناءِ، ولا يمتلك الأمرَ النافذَ على كل المخلوقات ، بل ويعجزُ عن دفعِ الأمرِ النافذِ عن نفسه ، ويجوزُ له التشريعُ المقيدُ فقط . فمن كان كذلك ينبغي أن يكون عبدًا لربه سبحانه وتعالى ، فلِمَ الهربُ من الحقيقة ؟

فائدة معرفة مقاييس الربوبية والعبودية :

(1) المرءُ يعبدُ الله عن يقين .

(2) المرءُ يستطيع بغايةٍ من السهولةِ واليسرِ تكذيبَ أي مُدَّعٍ للربوبية من دون الله تعالى ، بعرضه على تلك المقاييس ، وهذا هامٌ لإبطالِ الكفرِ والشركِ .

(3) إذا تجاوز العبدُ حدَّ العبودية إلى مقام الربوبية ، صار ندًا مزعومًا لله تعالى ، وهو ماأَطلَق عليه الشرع اسم (الطاغوت) .

التطبيقُ على الإنسانِ وهو من أرقى المخلوقات : هل أتى عليه حينٌ من الدهرِ لم يكن شيئًا مذكورًا ؟ ألم يولدُ ضعيفًا لا قدرةَ له على شيء ولا علمَ له بشيء ؟

ألم يرضعُ من ثدي أُمه حتى صار شابًا يافعًا ؟ ألا يصيرُ شيخًا كبيرًا ضعيفًا حين يتقدمُ به العُمر ؟ ألا يصيرُ طريحَ الفراشِ حينَ يُصاب بأحقرِ الميكروباتِ شأنًا ؟ ألا يفقدُ قوتَه حين يُصاب بالمرض ؟ ألا ينتهي به الحالُ إلى الترابِ ؟ نبئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين ، هل يصلح ذلك الإنسان لمقامِ الربوبيةِ العظيم ؟ إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد .

وأنادي فأقولُ :

يا أيها الكُفَّارُ والمشرِكونَ في مشارق الأرض ومغاربها : أروني في معبوداتكم الباطلةِ من يتصف بواحدةٍ فقط من خصائصِ الربوبية ؟

ويا أيها الطواغيت الذين يُحلُّون ويُحرِّمون من دون الله : ذلك هو ربنا الذي له حقُّ التشريعُ، فمنْ منكم يستطيع أن يَخلُقَ ذُبابة ؟ ومنْ منكم يُسخِّر الشمسَ والقمرَ والنجومَ بأمره ؟ فعلى أي أساسٍ تنازعون الله تعالى في ربوبيته ؟

ويا أيها الأتباعُ المخدوعون : أتستبدلون أفكار جيفارا وكارل ماركس وماوتسي تونج وزبالةِ الفكرِ البشري بشرعِ رب البرية ، أفلا تعقلون ؟!

ثانيا : قضية الأُلوهية

* الإله في لغة العرب : الإله هو الله عز وجل ، وكل ماأُتخِذ من دون الله معبودًا عند مُتخِذه . ومعنى ذلك أنَّ كلمةَ الإله قد تكونَ بالحقِ أو بالباطلِ . فالمشرِكون سمَّوا الأصنام آلهة لاعتقادهم أنَّ العِبادة تحقُّ لها ، وأسماؤهم تتبعُ اعتقاداتِهم لا ماعليه الشيءُ في الحقيقةِ .

قال تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص 5] .

* وفي الاصطلاح : الإله هو المعبود ، وسيأتي معنى العبادة .

* القرآن يُقرر أنَّ الاستحقاقَ الصحيحَ للعبادةِ يكونُ للربوبية ، فالمِقياسُ الذي يُفرّق بين الإله الحق والآلهه الباطلة هو الربوبية : فاللهُ تعالى هو الإلهُ الحقُ لربوبيته ، وكلُ الآلهةِ من دونهِ باطلٌ لعدم ربوبيتها .

قال تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة 21 ـ 22] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "شرعَ تبارك وتعالى في بيان وحدانية إلوهيته بأنَّه تعالى هو المنعم علي عبيده بإخراجِهم من العدمِ إلى الوجودِ وإسباغِهِ عليهم النعمَ الظاهرةَ والباطنةَ بأن جعلَ لهم الأرض فراشًا أي مَهدًا كالفراشِ مُقررةً مُوطأةً مُثبتةً بالرواسي الشامخات ، والسماء بناءً وهو السقفُ ... وأنزلَ لهم من السماءِ ماءً ... فأخرجَ لهم به من أنواع الزروعِ والثمارِ ماهو مشاهدٌ رزقًا لهم ولأنعامِهم ... ومضمونُه أنَّه الخالقُ الرازقُ مالكُ الدارِ وساكنيها ورازقُهُم ، فبهذا يستحقُّ أن يُعبد وحدهُ ولايُشركُ به غيره ... { فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون }... وهذه الآيةُ دالةٌ على توحيدِهِ تعالى بالعِبادةِ وحدهُ لا شريك له" أهـ.

العبادة :

* في لغة العرب : العبدُ هو الإنسانُ حرًا كان أو رقيقًا ، على أنَّه مربوبٌ لله تعالى .
والعبد : هو المملوك خلاف الحُر ـ والعبادة تشمل المعاني الآتية :

(1) الطاعة : الانقياد والموافقة للأمر .

(2) الذِلة : نقيض العِزة / اللِين (الرِفق والرحمة) / السُهُولة للوطأ .

(3) الخضوع : التواضع / الانحناء وميل الرأس إلى الأرض / اللين (لين الكلام) .

(4) التعظيم : التبجيل والتكبير .

(5) التقديس : التطهير (التنزيه عن العيوب والنقائص) والتبريك .

(6) التألُّه : العبيد يَوْلهون إليه (يقصدونه) في حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما يُصيبهم ، ويفزعون إليه في كل ماينوبهم ، كما يَولَهُ (يَحِنُ) الطفلُ إلى أُمِّه .

* اصطلاحًا : هي تمام (أعلى الدرجات) الطاعةِ والذِلةِ والخُضوعِ والتعظيمِ والتقديسِ والتألُّهِ من العبدِ إلى الرب .

أركان للعبادة : ونستطيع أن نستخلصَ ثلاثةَ أركانٍ للعبادة :

(1) الطاعة : وهي الانقيادُ للربِّ جلَّ وعلا ، بتنفيذ أوامره بآداءِ الواجباتِ وتركِ المحرمات . وتتميز بأنها الطاعةُ المطلقةُ الأعلى (مطلقةٌ أي غير مُقيدة بإذنٍ أو حدٍ من غيره ـ والأعلى أي أعلى من غيرها) ، ومن هذه الحيثية لا تصح إلا لله تعالى لكونه ربًا . ومن ثمَّ فطاعةُ أولي الأمر ليست عبادةً لهم ، لأنَّ طاعتَهم مُقيدةٌ وأدنى من طاعةِ اللهِ عزَّ وجل .

(2) النُسكِ : كالصلاة والذكر والذبح والنذر لله تعالى ، ويظهر فيها الخضوع والذِلة والتعظيم والتقديس .

(3) الدعاء: ويظهرُ ذلك في الحوائجِ والنوائبِ التي لايقدرُ عليها إلا اللهُ عز وجل .

الشفاعة :

* في لغة العرب : الشَّفْعُ : الزَّوْجُ ـ خلاف الوَتْرِ أو الوِتْرِ : وهو الفردُ .

*اصطلاحًا : شَفَعَ : أي طلب لغيره (توسط) لجلب نفعٍ أو دفع ضر ، والاسم الشفاعة . مثلُ شفاعةِ النبي ﷺ والملائكةِ والشهداءِ لغيرِهم .

* أركان الشفاعة :

1- المشفوع له (المستفيد / من اتخذ الشفيع) .

2- الشافع أو الشفيع (الواسطة ـ من يقوم بالشفاعة) .

3- المشفوع عنده : المقصود بالشفاعة ، الله تعالى أو المخلوق من البشر .

أنواع الشفاعة : نوعان :

الشفاعة الدنيوية : المقصود بالشفاعةِ هو المخلوق من البشر ، وتكونُ في حدودِ مايقدر عليه البشرُ ، وهي غيرُ مقصودةٍ هنا .

1 . إن كان المطلوب أمرا حسنا فهي مشروعة :

لقوله تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ (النساء : 85) .

مثال : شفاعة النبي ﷺ لزوج بُريرة بأن ترجع إليه .

2- إن كان المطلوب أمرًا سيئًا فهي مُحرَّمة :

لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء : 85) .

مثال : شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه للمرأةِ المخزومية .

الشفاعة الدينية : المقصود بالشفاعة هو الله تعالى ، وهي نوعان : مشروعة وشركية.

الشفاعة المشروعة :

الشفاعةُ كلها لله تعالى ، فهو الذي شرعها ووضع شروطها وكيفيتها لإجراء الخيرِ على يدِ الشافعِ للمشفوعِ له . فهي محضُ فضلٍ من الله تعالى لمن يشاءُ من عبادِه . وتتميز

بما يلي (شفاعةُ عبد) :

(1) الشروط :

الإذن من الله تعالى للشافع والرضا عن المشفوع له ، وشرطه أن يكون من أهل التوحيد .

قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة : 255) .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (الأنبياء : 28) .

قال تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ (المدثر : 48) .

قال ابن كثير رحمه الله: "أي من كان متصفا بهذه الصفات ـ يقصدُ صفاتِ الكفرِ ـ فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلًا فأمَّا من وافى الله كافرًا يوم القيامة فإنَّه له النارُ لا محالةَ ، خالدًا فيها" أهـ.

(2) الكيفية :

في الآخرة : دعاءُ اللهِ تعالى . كشفاعةِ النبي ﷺ لأمته .

وفي الدنيا : طلبُ الدعاءِ لله تعالى . فيطلب المرءُ من أحد الصالحين الأحياء أن يدعوَ الله تعالى له لقضاءِ حاجةٍ ، ممَّا لايقدر عليه إلا الله ، كاستسقاء الصحابة رضي الله عنهم بالعباس عم النبي ﷺ .

ثانيًا : الشفاعة الشركية : وتتميزُ بما يلي (شفاعةُ ندٌ مزعوم) :

(1) الشروط :

بدون إذن الله تعالى للشافع ورضاه عن المشفوع له ، بل من عند المشركين بلا دليل ولابرهان .

(2) الكيفية :

دعاءُ غيرِ اللهِ تعالى ، حيثُ يطلبُ المشفوعُ له (المستفيد) قضاءَ الحاجةِ (مما لايقدر عليه إلا الله) من الشفيعِ .

إنَّ قدرةَ الشفيعِ على تحقيقِ الحاجةِ لها احتمالان :

– القدرةُ على تحقيقِ الحاجةِ بذاته ، وبهذا يكون إلهًا آخرًا مُستقلًا عن الله تعالى ، سبحانه عما يُشركون ، وهو غيرُ حالتِنا .

– القدرة على تحقيق الحاجة بالتأثير على إرادة الله (بالكلمة النافذة عند الله تعالى ، كأنهم مُتصرفين مع الله تعالى في ملكوته) ، وبهذا يكون إلهًا أصغر يستحق العبادة بزعمهم تحت الإله الأكبر ومُقرّبًا إليه ، كالشفاعة عند ملوك الدنيا . وهذا خلل في الربوبية ، على الرغم من كونهم مُقرين بتوحيد الربوبية العامة المتعلقة بخلق الكون وتدبير شؤونه .

نماذج من الشفاعةِ الشركية :

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر 3] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفي } أي إنَّما يحملهم على عبادتهم لهم أنَّهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقرَّبين في زعمهم ، فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نَصرهم

ورِزقهم وما ينُوبهم من أمورِ الدنيا ، فأمَّا المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به ... ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجُّوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك... وأخبر أنَّ الملائكة التي في السماوات من الملائكة المقربين وغيرِهم كلهم عبيدٌ خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراءِ عند ملوكهم يشفعون عندهم بغيرِ إذنهم فيما أحبَه الملوكُ وأبَوه" أهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس 18] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "ينكرُ تعالى على المشرِكين الذي عبدوا مع الله غيره ظانين أنَّ تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها ، فأخبر تعالى أنَّها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئًا ولا يقع شيء ممَّا يزعمون فيها ولا يكون هذا أبدًا ، ولهذا قال تعالى (أتنبئون ...)" أهـ.

قال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر 43 ـ 44] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى ذامًا للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله ، وهم الأصنام والأنداد ، التي اتخذوها من تلقاءِ أنفسِهم بلا دليلٍ ولابرهانٍ حداهم على ذلك ، وهي لا تملكُ شيئًا من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات.... قل : أي يا مُحَّد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله ، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له ، فمرجعها كلها

إليه... (له مُلك السماوات والأرض) أي : هو المتصرف في جميع ذلك (ثم إليه ترجعون) أي يوم القيامةِ ، فيحكمُ بينكم بعدلِه ، ويجزي كُلًا بعمله" أهـ.

التلازمُ بين الربوبية والأُلوهية :

الشركُ في الأُلوهية يستلزمُ الشركَ في الربوبيةِ والأسماءِ والصفاتِ (لزمَ الشيءَ أي لايفارقه).

أولًا : المشركون اعتقدوا الشفاعة الشركية في معبوداتهم ، وهذا خللٌ في الربوبية .

ثانيًا : المشرِكون طلبوا النصرَ والعزَ من أصنامِهم ؛ والقدرةُ على ذلك ربوبية .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس 74 ـ 75] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى مُنكرًا على المشرِكين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة...{ لا يستطيعون نصرهم } أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر، بل لا تقدر على الاستنصار لنفسها والانتقام ممَّن أرادها بسوء لأنَّها جمادٌ لا تسمعُ ولا تعقلُ ... { وهم لهم جُندٌ مُحضَرون} ... هذه الأصنام محشورةٌ مجموعةٌ يوم القيامة مُحضرةٌ عند حساب عابديها ليكونَ ذلك أبلغُ في حُزنهم وأدلُّ عليهم في إقامة الحُجة" أهـ.

وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم 81 ـ 82] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يُخبر تعالى عن الكُفَّار المشرِكين بربهم أنَّهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلهة { عزًا } يعتزون بهم ويستنصرونهم ، ثم أخبر أنَّه ليس الأمر كما زعموا

ولا يكون ما طمعوا ...{ كلا سيكفرون بعبادتهم } أي يوم القيامةِ { ويكونون عليهم ضدًا } أي بخلاف ماظنوا فيهم" أهـ.

ثالثًا : تقرير أهل العلم بأنَّ أنواع التوحيدِ مُتلازمة.

قال الشيخ حافظ حِكمي : "التوحيد نوعان :

الأول : التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز وجل وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

والثاني : التوحيد الطلبي القصدي الإرادي وهو عبادةُ الله تعالى وحده لا شريك له ، وتجريدُ محبته والإخلاصُ له وخوفُه ورجاؤه والتوكلُ عليه والرضا به ربًا وإلهًا ووليًا ، وأن لا يُجعل له عدلًا في شيءٍ من الأشياء وهو توحيد الأُلوهية"أهـ[5].

وقال أيضًا : "وبقية المشرِكين يُقرُّون بالربوبية باطنًا وظاهرًا كما صرح بذلك القرآن ... مع أنَّ الشرك في الربوبية لازمٌ لهم من جهة إشراكِهم في الأُلوهية وكذا في الأسماء والصفات ، إذ أنواع التوحيد مُتلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر، وهكذا أضدادها فمن ضاد نوعًا من أنواع التوحيد بشيءٍ من الشرك فقد أشرك في الباقي : مثالُ ذلك في هذا الزمن عُبَّاد القبور إذا قال أحدهم يا شيخ فلان ـ لذلك المقبور ـ أغثني أو افعل لي كذا ونحو ذلك ، يناديه من مسافة بعيدة وهو مع ذلك تحتَ الترابِ وقد صار ترابًا فدعاؤه إيَّاه عبادة صرفها له من دون الله لأنَّ الدُعاءَ مخُ العبادة ، فهذا شرك في الأُلوهية ، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلبِ خيرٍ أو دفعِ ضرٍ أو ردِ غائبٍ أو شفاءِ مريضٍ أو نحو ذلك ممَّا لا يقدرُ عليه إلا الله،

[5]) معارج القبول : ج 1 ص 67)

مُعتقدًا أنه قادرٌ على ذلك ، هذا شرك في الربوبية حيث اعتقدَ أنَّه مُتصرف مع الله تعالى في ملكوته ، ثم إنَّه لم يدعُه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنَّه يسمعه على البُعد والقرب في أي وقت كان وفي أي مكان ويصرحون بذلك ، وهذا شرك في الأسماء والصفات حيث أثبتَ له سمعًا محيطًا بجميع المسموعاتِ لا يحجبه قُربٌ ولا بعد فاستلزم هذا الشركُ في الإلوهيةِ الشركَ في الربوبيةِ والأسماءِ والصفات" أهـ.[6]

الأسماءُ والصفات .

لا شك أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى وصفاتَه المتعلقة بمعاني الربوبية والأُلوهية تدخل في دعوة الرُسل إلى الإسلام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . أما سائر الصفات والأسماء كالاستواء على العرش وإثبات اليدين والنزول الى السماء ... الخ ، فهي من العقائد الإسلاميةِ التي وردت في الشريعة بعد الدعوة الأولى للإسلام . وعلى الرغم من أنَّ دراسةَ الأسماء والصفات هامةٌ جدًا في معرفةِ حقيقة الرب جلَّ وعلا ، إلا أنَّه يلزم الفصل بين الدعوةِ الأولى للإسلام ، وبين سائر العقائدِ الإسلامية .

وأرى أنَّ عرض الإسلام كما جاء عن الرُسل الكرام ، أفضل من عرضِهِ بالطريقةِ المعهودةِ (توحيد الربوبية والأُلوهية / والأسماء والصفات) . ويجب أيضًا شرح المعاني المقصودة لمنْ خفيَ عليه شيءٌ منها ، كما فعل النبي ﷺ مع عدي بن حاتم حين لم يفهم كيف كانت عبادة الأحبار والرهبان من دون الله تعالى .

[6] (المصدر السابق : ج1ص375) .

وتلك الطريقة المعهودة تؤدي إلى الخلط بين مايُعذر فيه ومالا يُعذر فيه . فمن جهل أنَّ الله تعالى خالقه فهو كافر ، أمَّا من جهل أو تأول استواءِ الله على عرشِه ، فهو معذورٌ بالجهل والتأويل ، والله أعلم .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "في تفسير قوله تعالى { ثم استوى على العرش } :

نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : ... وهو إمرارها كما جاءت من غير

تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهانِ المشبِهين منفيٌ عن الله ، فإنَّ اللهَ لا يُشبِهُهُ شيءٌ من خلقه ، وليس كمثلِهِ شئ { وهو السميع البصير } ... فمن أثبتَ لله تعالى ما وردت به الآياتِ الصريحةِ والأخبارِ الصحيحةِ على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلكَ سبيلَ الهُدى" أهـ.

ثالثًا : قضية الوحدانية .

هي أنَّ الربَّ جل وعلا مُتفرد في ربوبيته (أي لا رب غيره) ، ومن ثم فهو متفردٌ في إلوهيته واستحقاقه للعبادة (أي لا إله سواه) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف 110] .

الأدلة العقلية .

إن وجود الكائنات والنظام العام الذي يجمعها لهو خير شاهد على وحدانية الحق جل وعلا ؛ إذ لو كان في الوجود أكثر من رب لاختلفت علومُهم وإرادتُهم حسب اختلافِ ذواتهم ، وهذا خلافٌ ذاتي يستحيلُ معه الوفاق ، ولو كان الأمر كذلك لَما وُجِد كائنٌ من

الكائناتِ أصلًا، ولَما وُجِد نظامٌ عامٌ يجمعُ تلك الكائناتِ (فإن أوجدَ أحدهما أفنى الآخر، وإذا أحيا أحدُهما أماتَ الآخر) .

الحُجة الرسالية :

قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء 22] . وهذا إثباتٌ للوحدانية ببيان الفساد المترتب على تعدد الآلهة .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله :" أخبر تعالى أنه لو كان في الوجودِ آلهةً غيرَه لفسدت السماواتِ والأرضِ فقال { لو كان فيهما آلهة } أي في السماوات والأرض { لفسدتا } كقوله تعالى { ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهبَ كلُ إلهٍ بما خلقَ ولعلا بعضُهم على بعضٍ سبحان اللهِ عما يصفون } وقال هاهنا { فسبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عما يصفون} أي عمَّا يقولون أنَّ له ولدًا أو شريكًا" أهـ.

المبحث السادس: إبطالُ الإلحاد

الملاحدة هم الذين لايؤمنون بوجود الله تعالى بالكُلّية ، ولهم شبهات واهية :

الشبهةُ الأولى : يدين الملاحدة بمذهب (لا إله ، والحياة مادة).

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية 24] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يُخبر تعالى عن قول الدهرية من الكُفَّار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد { وقالوا ما هي إلا حياتنا الدُّنْيَا نموت ونحيا } أي ما ثمَّ إلا هذه الدارُ يموت قوم ويعيش آخرون وما ثمَّ معادٌ ولا قيامةٌ . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ... وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أنَّ في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أنَّ هذا قد تكرر مرات لا تتناهى فكابروا المعقول وكذَّبوا المنقول ، ولهذا قالوا { وما يُهلكُنا إلا الدهر } قال الله تعالى { وما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلا يظنون } أي يتوهمون ويتخيلون" أهـ.

* إنَّ هذا المذهب المتهافِت يرتكز على محورين :

المحور الأول : أنَّ المادةَ دائمةُ الوجودِ أي لا تفنى ولا تُخلق من عدم ، وبالمادةِ كان هذا الوجودُ كُلُّه ، وبالتالي لا رب ولا إله ، وزعموا أنَّ المادة لا تفنى وإنما تتحول من حالة لأُخرى فقط ، فالإنسان حين يموت يتحول إلى تراب ثم يدور التراب دورته في الأرض ، وهكذا كلُ شيء .

المحور الثاني : أنَّ وجودَ الكائنات وتنوعها والتوازن البديع بين أفرادِها يرجعُ إلى الصُدفةِ البحتةِ، وليست من فعلٍ فاعلٍ حكيمٍ مُدَّبِرٍ .

الرد :

* أما عن الخلق : فيكفي الدليلُ المشاهدُ في الواقعِ بأنَّ الإنسانَ أو غيرَه من الموجودات لم يكن شيئًا ثم كان .

قال تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف 51] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيدٌ أمثالُكم لا يملكون شيئًا ولا أشهدتُهم خلقَ السماواتِ والأرضِ ولا كانوا إذا ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقلُ بخلقِ الأشياءِ كُلِها ومُدبرُها ومُقدِرُها وحدي ليس معي في ذلك شريكٍ ولا وزيرٍ ولا مشيرٍ ولا نظيرٍ" أهـ.

* أما عن الفناء : فبالموتِ تفنى حياةُ الإنسانِ ويتحولُ من كائنٍ ذو حركةٍ ونشاطٍ إلى كومةٍ من العظمِ والترابِ ، فالحياةُ قد فنيت بهذا المعنى . وإن كانوا يقصدون أنَّ الترابَ نفسَه ـ وهو مادةُ الإنسانِ ـ لم يُعدَم فإنَّ غايةَ ما يمكنُ أن يدَّعيه هؤلاءِ هو أنَّهم لم يشاهدوا عدمَ المادةِ ، وليس عدمِ مُشاهدةِ شيءٍ دليلاً على عدمِ وجودِه ، فضلًا عن أن يُجعلَ بُرهانًا على امتناعِه .

* أما الصُدفةُ المدَّعاةُ : فهي تُثير الإشفاقُ والضحك . فهل يمكن أن تلتقيَ مجموعةٌ من الذراتِ لتكونَ ضُفدعًا ، وتلتقي مجموعةٌ أخرى من الذراتِ لتكونَ كوكبُ المريخِ ، وكُل هذا بالصُدفةِ البحتة ؟

قال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان 44] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "أي هم أسوأ حالًا من الأنعامِ السارحةِ ، فإنَّ تلك تفعل ما خُلقت له، وهؤلاء خُلقوا لعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيرَه ويُشركون به مع قيام الحُجةِ عليهم وإرسالِ الرُسلِ إليهم" أهـ.

الشبهةُ الثانيةُ : يقول الملاحدة : لماذا قبِلتُم أنَّ اللهَ تعالى له القِدمَ والبَقاء وأنكرتم ذلك للمادة؟

الرد :

أثبتا أنَّ المادةَ في الكائناتِ حولنا تتميزُ بالحدوثِ والفناءِ بالدليلِ الواقعيِ المشاهدِ ممَّا لا يستطع أحدٌ إنكارَه ، وبالتالي ينتفي عنها القِدمُ والبقاءُ ، وأبسط مثال لذلك هو الإنسانُ نفسُه ، أمَّا اللهُ تعالى فقد اهتدينا بالبُرهانِ الصحيحِ أنَّ له القِدم والبَقاء فهل عندكم دليلٌ مُعارِضٌ لهذا ؟

الشبهةُ الثالثة : يقول الملاحدة فمَنْ خلق اللهَ إذن ؟

الرد :

* إنَّ هذا السؤالُ خطأٌ من أساسِه ، لأنَّنا قد أثبتنا أنَّ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ ، وأنَّ له القِدم والبقاء ، بلا ابتداء لوجوده ولا انتهاء . ونُصحح لهم السؤالَ ليكونَ عن كيفيةِ وجودِ اللهِ تعالى والجوابُ : إننا لا نملكُ الإجابةَ عن ذلك ، لأنَّ هذا خارجٌ عن حدودِ عِلمِنا ، فعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : (لا يزال الناسُ يتساءلون حتى يُقالَ : هذا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ ، فمن خلقَ اللهُ ؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنت بالله) رواه الشيخان ، وفي رواية البخاري (فليستعذ بالله ولينْته) .

* إن عدمَ الإجابةِ على هذا السؤالِ هو عينُ الحقِ ، إذ لا يصحُ للمرءِ أن يتكلم بلا عِلم ، لاسيَّما في حقِ الله تعالى ، وهو أيضًا لا يقدح فيما أثبتناه ، إننا حين نُقرر أنَّ لكلِ فعلٍ فاعلٌ ، لا يلزم من ذلك بالضرورةِ أن نعرفَ من هذا الفاعلُ وما شكلُه وما حجمُه .

المبحثُ السابع: إبطالُ الكُفر

وهذه نماذجٌ من الكُفر :

(1) فرعون عليه لعنة الله تعالى .

قال الله تعالى عنه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ [النازعات 15 ـ 26] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ هل أتاك حديث موسى } أي هل سمعت بخبره { إذ ناداه ربه} أي كلَّمة نداءً { بالواد المقدس } أي المطهر { طوى } وهو اسم الوادي على الصحيح ... { اذهب إلى فرعون إنَّه طغى } أي تجرد وتمرد وعتى { فقل هل لك إلى أن تزكى } أي قل له هل لك إلى أن تُجيب إلى طريقةٍ ومسلكٍ تزكى به وتُسلمُ وتطيع { وأهديك إلى ربك } أي أدُلك إلى عبادة ربك { فتخشى } أي فيصير قلبك خاضعًا له مُطيعا خاشعًا بعدما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير{ فأراه الآية الكبرى } يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوى الحق حُجةً قويةً ودليلًا واضحًا على صدق ما جاء به من عند الله { فكذَّب وعصى } أي كذَّب بالحق وخالف ما أَمره به من الطاعة ... { ثم أدبر يسعى} أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات {فحشر فنادى } أي في قومه { فقال أنا ربكم الأعلى } ...{ فأخذه الله نكال ...} أي انتقم الله منه انتقامًا جعله به عِبرةً ونكالًا لأمثالهِ من

المتمردين ...{ الآخرةِ والأولى } أي الدنيا والآخرة ...{ إنَّ في ذلك لعبرة لمن يخشى } أي لمن يتعظ وينزجر" أهـ.

نكل عن الشيءِ : صرفه عنه . نكَّلتُ بفلان : أي عاقبتُه في جُرمٍ أجرمه عقوبةً تصرفُ غيرَه عن ارتكابِ مثلهِ .

(2) النمرود عليه لعنة الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة 258] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ ألم تر } أي بقلبك يا مُحَمَّد { إلى الذي حاج إبراهيم في ربه } أي وجود ربه ، وذلك أنَّه أنكر أن يكون ثمَّ إلهٌ غيرُه ... وما حمله على هذا الطغيان والكُفر ... إلا تجبره وطول مدته في الملك ... { أن آتاه الله الملك } . وكأنه طلب من إبراهيم دليلًا على وجودِ الربِ الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم { ربي الذي يحي ويميت } أي إنَّما الدليل على وجودِه ، حدوثُ هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليلٌ على وجود الفاعلِ المختارِ ضرورةً ، لأنَّها لم تحدث بنفسها فلابد لها من مُوجد أَوجدها وهو الرب الذي أدعوك إلى عبادته وحده لا شريك له ... قال النمرود { أنا أُحي وأُميت } وذلك إنِّي أُوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيُقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يُقتل ... ولهذا قال له إبراهيم لما ادَّعى هذه المكابرة { فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب } أي إذا كنت كما تدَّعي من إنَّك تُحيي وتُميت ، فالذي يُحيي ويُميت هو الذي يتصرف في الوجود : في خلق ذواته وتسخيرِ كواكبه

وحركاتِه ، فهذه الشمسُ تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهًا كما ادَّعيت تُحيي وتُميت فأتِ بها من المغرب ، فلمَّا علم عجزه وانقطاعه وأنَّه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بُهت أي أُخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحُجة { والله لا يهدي القوم الظالمين } أي لا يُلهمهم حُجة ولا برهانًا بل حُجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذابٌ شديدٌ" أهـ.

وعلى الدعاةِ أن ينتبهوا إلى طريقة الاستدلال للوصول إلى الحق .

(3) قوم إبراهيم عليه السلام وعبادة الكواكب .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام 75 ـ 79] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السموات والأرض } أي نُبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه وأنَّه لا إله غيره ولا رب سواه ...{ وليكون من الموقنين } ... أي نُريه ذلك ليكون عالمًا وموقنًا ... { فلما جنَّ عليه الليل } أي تغشاه وستره { رأى كوكبًا } أي نجمًا { قال هذا ربي فلما أفل } أي غاب ... قال { لا أُحب الآفلين } ...علمَ أنَّ ربه دائمٌ لايزول ، لما رأى القمر بازغًا أي طالعًا قال هذا ربي فلمَّا أفل قال { لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم

الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي } أي هذا المنير الطالع ربي { هذا أكبر } أي جِرمًا من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة { فلما أفلت } أي غابت { قال يا قوم إِنِّي بريءٌ مما تشركون * إِنِّي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشرِكين } أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي { فطر السموات والأرض } أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق { حنيفًا } ... أي مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال { وما أنا من المشرِكين }" أهـ.

والحقُّ أنَّ إبراهيم عليه السلام كان مُناظرًا لقومه ، وعلى الدعاةِ أن ينتبهوا أيضًا إلى طريقةِ الاستدلالِ للوصول إلى الحق .

(3) عُبَّاد البقر .

عبد الهندوس البقر !! فإذا كان الإنسان لا يصلح للربوبية ـ وهو من أرقى المخلوقات ـ فهل يصلح البقر لذلك وهو بلا عقل ولا تدبير؟!

(4) عُبَّاد النار .

عبد المجوس النار وأنشأوا لها المعابد وقدموا لها القرابين !! والنارُ مخلوقةٌ وتحتاجُ إلى الأُكسجين لبقائها ، ويطفئها قليل من الماء ، فهل تصلحُ للربوبية ؟!

المبحثُ الثامن: إبطالُ شركِ عُباد الأصنام

(1) قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح 23 ـ 24] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ... وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلمَّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسمَّوها بأسمائِهم ففعلوا فلم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبِدت ...{ وقد أضلوا كثيرا } يعني الأصنام التي اتخذوها ، أضلوا بها خلقًا كثيرًا ...{ ولا تزد الظالمين إلا ضلالًا } دعاء منه على قومه لتمردِهم وكفرِهم وعنادِهم كما دعا موسى على فرعون وملئه ... وقد استجاب اللهُ لكلٍ من النبيين في قومه وأغرق أُمته بتكذيبهم لِما جاء به" أهـ.

وعلى الدعاةِ ملاحظةُ أن تماثيلَ الصالحين قد تكونَ ذريعةً للشرك مع تفشي الجهل ، واستعمالُ ذلك في دعوتِهم .

(2) قوم إبراهيم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾

(إلى قوله تعالى) ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء 51 ـ 67] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يخبر تعالى عن خليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام أنَّه آتاه رُشده من قبل أي من صغره ألهمه الحقَّ والحُجةَ على قومه ... { وكنا به عالمين } أي وكان أهلًا لذلك ، { إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون } هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، { ... أنتم لها عاكفون } أي معتكفون على عبادتها ... { قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين } لم يكن لهم حُجة سوى صنيع آبائهم الضُلال ، { لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين } أي الكلام مع أبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم فأنتم وهُم في ضلالٍ على غير الطريقِ المستقيمِ ...{ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين } ... هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبًا أو مُحقًا فيه فإنَّا لم نسمع به قبلك { قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن } أي ربكم الذي لا إله غيره هو الذي خلق السماوات والأرض وما حوت من المخلوقات ...{ وأنا على ذلكم من الشاهدين } أي وأنا أشهد أنَّه لا إله غيره ولا ربَّ سواه ، ثم أقسم الخليل ... ليكيدنَّ أصنامهم أي ليحرِصَنَّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مُدبرين أي إلى عيدهم...{فجعلهم جُذذا } أي حُطامًا ، كسرها كلَّها إلا كبيرًا لهم يعني إلا الصنم الكبير عندهم ...{ لعلهم إليه يرجعون } ذكروا أنَّه وضع القدوم في يدي كبيرهم لعلهم يعتقدون أنَّه هو الذي غار لنفسه وأنف أن تُعبد معه هذه الأصنام

الصغار فكسرها ...{ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم } أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله {أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون } أي أفلا تتدبرون ماأنتم فيه من الضلال والكُفر ... فأقام عليهم الحُجة وألزمهم بها " أهـ.

وعلى الدعاةِ أن ينتبهوا أيضًا إلى طريقةِ الاستدلالِ للوصول إلى الحق ، وإلى ضلالِ من يعبد مالاينفعه ولايضره ، واستعمالُ ذلك في دعوتهم .

(3) قوم رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر 13 ـ 14] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ... { وسخر الشمس والقمر } ... الجميع يسيرون بمقدار مُعين وعلى منهاج مُقنن ... { كلٌ يجري لأجلٍ مُسمى } أي إلى يوم القيامة { ذلكم الله ربكم } أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره { والذين تدعون من دونه } أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين { ما يملكون من قطمير } ... القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئًا ولا بمقدار هذا القطمير... { إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم } يعنى الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم لأنَّها جماد لا أرواح فيها { ولو سمعوا ما

استجابوا لكم } أي لا يقدرون على ما تطلبون منها { ويوم القيامة يكفرون بشرككم } أي يتبرءون منكم ... { ولا يُنبئك مثلُ خبير} أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها ... يعني نفسه تبارك وتعالى" أهـ.

وعلى الدعاةِ ملاحظةُ طريقة الاستدلال ، وملاحظةُ أنَّ الأصنامَ لا تملكُ شيئًا ، ولاتسمعُ ولاتستجيبُ لعابديها في الدنيا وتتبرأُ منهم في الآخرة ، واستعمالُ ذلك في دعوتِهم .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس 22] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "أخبر تعالى أنه { هو الذي يُسيركم في البر والبحر } أي يحفظكم ويكلؤكم بحراستِه { حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها } أي بسرعة سيرهم رافقين ، فبينما هُم كذلك إذ { جاءتها } أي تلك السفن { ريح عاصف } أي شديدة { وجاءهم الموج من كل مكان } أي اغتلم البحر عليهم { وظنوا أنهم أُحيط بهم} أي هلكوا { دعوا الله مخلصين له الدين } أي لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا ، بل يفردونه بالدعاء والابتهال ... { لئن أنجيتنا من هذه } أي هذه الحال { لتكونن من الشاكرين } أي لا نشرك بك أحدًا ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا" أهـ.

لماذا يلجأُ المشرِكون لله وحده عند الشدائد ؟ لأنَّهم يعتقدون في قرارة أنفسِهم أنَّ الأمرَ كُلَّه للهِ تعالى ، وعلى الدعاةِ ملاحظةُ ذلك في دعوتِهم .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف 27 ـ 28] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى } يعني أهل مكة وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرُسل مما حولها كعاد ... { وصرَّفنا الآيات } أي بيناها وأوضحناها {ولعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة } أي فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم { بل ضلوا عنهم } أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم { وذلك إفكهم} أي كذبهم { وما كانوا يفترون } أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم ، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها " أهـ.

وعلى الدعاةِ ملاحظةُ أن الأصنام لا تملك دفع عذاب الله عن عابديها ، واستعمالُ ذلك في دعوتهم .

المبحثُ التاسع : إبطالُ شركِ النصارى

مساحةُ الاتفاق :

أودُ أن أُشيرَ إلى حقيقةٍ لا تقبلُ الجدلَ أو التشكيكَ وهي أنَّ دينَ الإسلامِ يدعو إلى الإيمانِ بكافةِ رُسلِ اللهِ تعالى ، ومنهم سيدُنا عيسى عليه السلام ، بل جعلَهُ اللهُ تعالى من أُولي العزمِ من الرُسلِ ، وجعل دعوتَهُ هي عينُ دعوةِ جميعِ الرُسل .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة 116ـ117] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "هذا أيضًا مما يُخاطِبُ اللهُ به عبدَهُ ورسولَهُ عيسى ابن مريم قائلًا له يومَ القيامةِ بحضرةِ من اتخذَهُ وأُمَهُ إلهينِ من دونِ الله { يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله } وهذا تهديدٌ للنصارى وتوبيخٌ وتقريعٌ على رؤوسِ الأشهادِ ...{ سبحانك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحق } هذا توفيقٌ للتأدبِ في الجوابِ الكاملِ ...{ إن كنت قلتُه فقد علمته } أي إن كان صدر مني هذا فقد علمتَهُ يارب فإنَّه لا يخفى عليكَ شيءٌ، فما قلتُه ولا أردتُه في نفسي ولا أضمرتُه ... { تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب* ما قلت لهم إلا ما أمرتني به } بإبلاغه { أن اعبدوا الله ربي وربكم } ...{ وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم } أي

كنتُ أشهدُ على أعمالِهم حين كنتُ بين أظهرِهِم { فلما توفيتني كُنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد } "أهـ.

إنَّ هذا الرسولَ الكريمَ أخذَ مساحةً كبيرةً في القرآنِ الكريم ، وقصتُهُ معروفةٌ ابتداءً من نشأتِهِ عليه السلام مرورًا بمعجزاتِهِ وانتهاءً برفعِ اللهِ تعالى إياه . إذن لا اختلافَ بين عيسى عليه السلام وبين الرُسلِ قبلَهُ وبعدَهُ في أساسِ الدينِ ، مع ملاحظةِ أنَّ اللهَ تعالى جعلَ دينَ سيدُنا مُحَّد ﷺ هو الرسالةُ الخاتمةُ لكلِ البشرِ ، فما المشكلةُ مع النصارى إذن ؟

مساحةُ الاختلاف :

هناك عدةُ مشاكلٍ للمسلمين مع النصارى ، من أهمِها : العقائدُ الرئيسيةُ عند النصارى / والكتابُ المقدسُ عند النصارى / وأصولُ التعاملِ بين المسلمينَ والنصارى .

المشكلة الأولى : العقائدُ الرئيسيةُ عند النصارى .

إنَّ هذه المشكلةَ هي أصلُ الخلافِ بين المسلِمين والنصارى اليوم ، وجميعُ المشاكلِ الأُخرى تابعةٌ لها . إنَّها مجموعةُ عقائدٍ ابتدعَها النصارى بعد رفعِ عيسى عليه السلام ، خالفوا بها جميعَ الرُسلِ ، وليس رسولَ الإسلامِ وحده ، وهي : الزعمُ بأُلوهيةِ المسيحِ عليه السلام / والزعمُ بالثالوثِ الأقدسِ / والزعمُ ببنوةِ المسيحِ للهِ تعالى / والزعمُ بعقيدةِ الفداء .

الزعم بأُلوهيةِ المسيحِ عليهِ السلام

يعتقد النصارى بأنَّ يسوعَ المسيحَ إلهٌ ، وهو الأقنومُ الثاني في الثالوثِ الأقدسِ المزعزمِ ، وأنَّهُ قد اختار طواعيةً أن يظهرَ في صورةِ جسدٍ بشري ، وأنه وُلدَ من العذراءِ مريمَ عليها السلام .

الردُّ من نصوصِ الكتابِ المُقدسِ عند النصارى :

إنَّ عيسى عليه السلامُ لم يدَّعِ الأُلوهيةَ قط ، وأقرَّ بأُلوهيةِ الله تعالى وحدَهُ ، واعترف ببشريتِه ورسالتِه :

(1) قال بُطرس: "أيها الرجالُ الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال : يسوعَ الناصري رجلٌ قد تبرهنَ لكم من قِبَلِ الله بقواتٍ وعجائبٍ وآياتٍ صنعها اللهُ بيدِهِ في وسطِكم كما أنتم أيضًا تعلمون" (أعمال الرُسل 2 : 22) .

(2) قال عيسى عليه السلام : "ولكنكم الآن تطلبونَ أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحقِّ الذي سمِعَهُ من الله " (يوحنا 8 : 40).

(3) وقال : "وهذه هي الحياةُ الأبديةُ أن يعرفوك أنتَ الإلهَ الحقيقيَ وحدَك ، ويسوعَ المسيحَ الذي أرسلتَه " (يوحنا 17 : 3) .

(4) وقال :" وقولي لهم إنيَّ أصعدُ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهِكم "(يوحنا 20 : 17).

(5) وقال : "كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا بعضُكم من بعضٍ ، والمجدُ الذي من الإلهِ الواحدِ لستم تطلبونَه" (يوحنا 5 : 44) .

(6) "ونحوَ الساعةِ التاسعةِ صرخ يسوعُ بصوتٍ عظيم قائلًا : إيلي إيلي لِما شبقتني . أي إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ " (متى 27 : 46) .

(7) وقال : "تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني" (يوحنا 7: 16) .

(8) وقالوا عنه : "وبعدما صرفَ الجموعَ صعدَ منفردًا ليُصلي" (متى14 : 23) .

فهل الله يُصلي ؟ ولِمنْ ؟

(9) وبعدما أحيا ميتًا بإذن الله تعالى : "فأخذَ الجميعُ خوفًا ومجَّدوا الله قائلين : قد قام فينا نبيٌّ عظيم " (لوقا 7 : 16) .

(10) فأجابه يسوع : "إنَّ أولَ كلِّ الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الربُ إلهُنا ربٌ واحد" (مرقس 12 : 29) .

(11) حينئذٍ قال له يسوع : "اذهب يا شيطان ، لأنَّه مكتوب : للربِّ إلهِكَ تسجدُ وإياهُ وحدَهُ تعبد" (متى 4 : 10) .

(12) وإذا واحدٌ تقدمَ وقال له :" أيها المعلمُ الصالح ، أيُّ صلاحٍ أعملُ لتكون لي الحياةُ الأبديةُ ؟ فقال له : لماذا تدعوني صالحًا ، ليس أحدٌ صالحًا إلا واحد وهو الله ، ولكن إن أردتَ أن تدخلَ الحياةَ فاحفظِ الوصايا" (متى19 : 16 ـ 17) .

فهذه كتبُهم تشهدُ عليهم ، فاللهم اهدِهم ورُدهم إلى الحقِّ ردًا جميلًا .

الردُّ من الشريعةِ الإسلامية

إنَّ الإسلام يُكذِّب تلك العقيدةَ ، ويرفضُها رفضًا قاطعًا ، ويُثبت أنَّ عيسى عليه السلام رسولٌ كسائرِ الرُسل ، ولم ولن يكون الإلهُ المتجسِد :

قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء 171] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : " ينهي تعالى أهل الكتاب عن الغُلو والإطراء ...{ ولا تقولوا على الله إلا الحق } أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبةً وولد ، تعالى الله عزَّ وجل عن ذلك علوًا كبيرًا ... { إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه } أي إنَّما هو عبدٌ من عباد الله ، وخلقٌ من خلقِه قال له كن فكان ، ورسولٌ من رُسله وكلمته ألقاها إلى مريمَ ، أي خلقهُ بالكلمةِ التي أرسلَ بها جبريلُ عليه السلام إلى مريمَ فنفخَ فيها من روحِهِ بإذن ربِهِ عز وجل ...{ فآمنوا بالله ورُسله } أي فصدِّقوا بأنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ لا ولدَ لهُ ولا صاحبةَ، وتيقنوا بأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه ...{ ولا تقولوا ثلاثة } أي لا تجعلوا عيسى وأُمَه مع اللهِ شريكين ، تعالى اللهُ عن ذلك علوا كبيرًا ... وكل هذه الفرق تُثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك ، وكل منهم يُكفر الفرقة الأخرى ونحنُ نُكفِّرُ الثلاثة" أهـ.

فهذه نصوصُ القرآنِ تُكذبُهُم ، وتشهدُ عليهم ، فاللهم اشرح صدورَهم للإسلام .

الرد العقلي .

1ـ العقلُ يعتبر أنَّ تجسدَ الإلهِ في جسدِ إنسانٍ بالحدودِ البشريةِ التي نعرفُها ، هو انقاصٌ لكمالِ اللهِ تعالى .

2 ـ العقلُ يرفضُ تصورَ إلهٍ يحتويهِ رحمُ امرأة ، ثم تلدهُ مُلطخًا بالدماءِ، ثم تُرضعُهُ ثم يبولُ ويتبرزُ ، وحين يكبرُ يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواقِ ، وفي النهاية يموت مقتولًا على الصليب بزعمهم !!

3 ـ اعتبار أنَّ عيسى عليه السلام نصفُه لاهوت (من الله) ونصفُه ناسوت (من الإنسان) يجعلُهُ يجمعُ بين خصائصِ الربوبية والعبودية على زعمهم ، فكيف يُقيمُ اللهُ تعالى الحُجةَ على خلقِه ، والخالقُ صارَ كالمخلوقِ ؟ وما المانعُ ـ بناءً على عقيدةِ الحلولِ المدَّعاة ـ أن يكون الربُّ قطعةً من الخشبِ أو حجرًا يتلاعبُ به الصبيان ؟ تعالى الله عما يقولُه الجاهلون علوًا كبيرًا .

4 ـ الزعمُ بأنَّ (هذه إرادة الله) ادِّعاءٌ لا يُسمنُ ولا يُغني من جوع ، لأنَّه قولٌ بلا برهان، وما هو إلا محاولةٌ مكشوفةٌ للهروب من محضِّ الحق ، ولكن إلى متى ؟

بيانُ نشأةِ العقيدة :

إن عقيدة التجسد دخيلة على المسيحية ، وقد نشأت بعد فترة من رحيل يسوع المسيح عبر المراحل الآتية :

(1) اعتبر يسوع المسيح نبي الله وبشر ، ولا شيء أكثر من ذلك (المصدر الأصلي لإنجيل مُرقس) .

(2) أُعتبر يسوع المسيح ملاك مُقتدر لكنه مازال بشرًا ، ونُسبت إليه كثير من المعجزات (إنجيل مُرقس البدائي) .

(3) في القرن الثالث والرابع صنعوا منه إلهًا (مفتتح إنجيل يوحنا) .

(4) في عام 325 م في مجمع نيقية : تم إقرار تأليه يسوع المسيح ضد أولئك الذي ينكرون إلوهيته (كتاب الغفران للشيخ إبراهيم خليل ـ كان نصرانيًا وأستاذًا للاهوت وأسلم ـ ص 102) .

سبب اعتقاد النصارى في أُلوهية المسيح عليه السلام :

(1) نشأة عيسى عليه السلام : هذه تعتبر مُعجزة ولا يشك في ذلك عاقل ، ولو كانت دليلًا على الأُلوهية ، لكان الأولى بذلك آدم عليه السلام الذي أنشئ بلا أب وبلا أم .

إنَّ مجرد إنشاء عيسى عليه السلام بعد عدم ـ بأي طريق كانت ـ تُثبت أنَّه مخلوق ويستحيل أن يكون خالقًا كما أسلفنا القول . فأين كان عيسى عليه السلام قبل أن يخلقَهُ الله عز وجل؟ لم يكن شيئًا مذكورًا كسائرِ البشرِ ولا فرق .

(2) أفعال عيسى عليه السلام : إنَّ أفعال عيسى عليه السلام من الخلق وإحياء الموتى وشفاءالمرضى وعلم الغيب ، ليست بذاتها دليلًا على الأُلوهية ، لأننا أمام احتمالين :

الاحتمال الأول : أن يفعل هذا بشكل مُطلق دون إذنٍ من الله تعالى ، وبمحض قدرته الذاتية، ففي هذه الحالة يكون إلهًا آخر ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، ويتحتم عليهم إثبات ذلك بالدليل القطعي ، وهيهات . وكتبُهم ـ على تحريفها ـ تنفي إلوهيته ، ونشأته عليه السلام بعد عدم تلغي ذلك الاحتمال تمامًا .

والاحتمال الثاني : أن يفعل ذلك بإذن الله تعالى ، ومن هنا يثبت أنَّ تلك الأفعالَ مُعجزةٌ فقط، أجراها الله تعالى على يديه تأييدًا له عليه السلام.

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران 45 ـ 49] .

الزعمُ بالثالوث الأقدس

يعتقد النصارى أنَّه يوجد ثلاثة أشخاص آلهة مُنفصلة ومُتميزة ، فيما يسمى بالثالوث الأقدس، وهي الآب والابن والروح القدس ، ولكن هؤلاء الثلاثة إله واحد ، متساوون في المجد ومتساوون في الأزلية .

الرد من نصوص الكتاب المقدس عند النصارى

* إنَّ يسوع المسيح لم يذكر إطلاقا الثالوث الأقدس ، بل أثبت الرب الواحد والإله الواحد (راجع النصوص عند مناقشة ادعاء أُلوهية السيد المسيح عليه السلام) .

* الأناجيل المعتمدة الأربعة (التي قد دونت بين عام 70 وعام 115 م) لا تحوي أي إشارة إلى الثالوث الأقدس. وحتى بولس (الذي جلب آراءًا غريبة على المسيحية) لا عِلم له بالثالوث الأقدس ، فأين نجدُ الدليلَ على ذلك ؟

* إذا راجعت كل النصوص التي ذكرناها يتبين لك أنَّ الحديث عن ذاتين وليس عن ذات واحدة : إلهٌ يتكلم ورسولٌ يسمع ، إلهٌ يُرسِل ورسولٌ مُرسَل .

الرد من الكتاب والمفكرين النصارى :

(1) الموسوعة الكاثوليكية الحديثة طبعة سنة 1967م :

* ج 4 ص 295 : "وبذلك يكون أنَّ مايدَّعيه بعقيدة الثالوث الجازمة بأنَّه إله واحد في ثلاثة أشخاص تصبح تمامًا طعنة وسُبَّة في الحياة المسيحية والفِكر المسيحي" أهـ.

* ج 14 ص29 : "إنَّ صياغة الإله الواحد في ثلاثة أشخاص لم تنشأ مُوطدة ومُمكنة في حياة المسيحيين وعقيدة إيمانهم قبل نهاية القرن الرابع " أهـ.

(2) التعاليم الكاثوليكية للقس جروت ص 149 :

* "إن الثالوث الأقدس هو سر غامض بمعنى الإلزام بالكلمة" أهـ.

* "قد كُشِف لنا بقاء استحالة العقل الإنساني إدراك كيفية أنَّ الثلاثة أشخاص إنَّما هي ذات طبيعة إلهية واحدة " أهـ.

ومعنى هذا أن الكنيسة أدركت استحالة الاعتقاد بأنَّ الثلاثة آلهة إله واحد ، فأعلنت أن التثليث سر غامض ، وعلى الإنسان أن يُحرِز إيمانًا أعمى.

الرد من الشريعة الإسلامية :

إن الإسلام يرفض تلك العقيدة ويُكذّبها تمامًا ، ويعتقد المسلِمون في إله واحد مقابل عقيدة النصارى في الثالوث. ويعتقد المسلِمون أنَّ الله تعالى واحد في ذاته ، واحد في ربوبيته وإلوهيته.

قال تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة 163] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يخبر تعالى عن تفرده بالأُلوهية وانه لا شريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو وأنَّه الرحمن الرحيم " أهـ.

الرد العقلي :

* إذا كان هناك ثلاثة أقانيم (الأصول ، واحدها أقنوم) مُنفصلة ومُتميزة ، وكل شخص هو إله ، إذن فلابد أن يكون هناك ثلاثة آلهة ، ومن التناقض العقلي أن تقول 1+1+1= 3 ، ولكن = 1 أيضًا.

* الأشخاص الثلاثة المتميزة لهم ثلاث احتمالات بضرورة العقل :

(1) الثلاثة أشخاص يتَّسمون بصفات الأُلوهية : كالقِدم والبقاء والقُدرة المطلقة والعلم المطلق ... الخ ، فيكونون ثلاثة آلهة قطعًا على زعمهم :

ـ فلو قالوا أنَّهم إله واحد ، فهذا مُحال عقلًا ، وهو يهدم العقيدة من أساسها.

ـ ولو قالوا أنهم ثلاثة آلهة ، فهذا مُحال أيضًا ، لاستحالة تعدد الأرباب كما ذكرنا.

ـ وسواء قالوا بالقول الأول أو الثاني فيلزم أن يكون ذلك دين جميع الرُسل ، طالما يتعلق الأمر بحقيقة الأُلوهية ، وهذا مخالف للواقع قبل عيسى عليه السلام وبعده.

(2) الثلاثة أشخاص لا يتسمون بصفات الأُلوهية : إذن ليسوا جميعًا آلهة ، لا الأب ولا الابن ولا الروح القدس .

(3) ذات واحد هي الإله والشخصان الآخران مخلوقان : وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه ، وهذا هو ما يجحدوه.

تفسير النصارى لعقيدة الثالوث

حاول النصارى مرارًا وتكرارًا إثبات تلك العقيدة بطُرق شتى ، ولكنهم فشلوا فشلًا ذريعًا، وزعموا أنَّ المسلِمين لا يمكنهم فهم تلك المعادلة الصعبة ، وأنَّ العيب في عقول المسلِمين لا في فساد عقيدتهم .

التفسير الأول: قالوا إنك قد تكون زوجًا في البيت وتكون مديرًا عامًا لمصنعك في نفس الوقت ، وتكون أيضًا عضوًا في مجلس المدينة ، فهذه ثلاثة وجوه لشخص واحد، وهكذا التثليث.

الرد : إنَّ ما ذكروه هو ثلاث وظائف لذات واحدة وليست لذوات متعددة ، بل قد تصل الوظائف إلى عشرة ولا يضر ذلك . والسؤال الآتي يكشف الحقيقة تمامًا : هل يمكن لي (أنا الزوج) أن أُرسل المدير العام (الذي هو أنا أيضًا) إلى عضو مجلس المدينة (الذي هو أنا أيضًا) ؟! فاللهم ثبت قلوبنا على دينك.

التفسير الثاني : قالوا : إنكم ترون الشمس ، وهي شيء واحد ، ولكن لها جسم وضوء وحرارة ، وكذلك التثليث.

الرد : والبرتقالة أيضًا لها جسم وطعم ولون ورائحة ، لكنها ذات واحدة لها أربع صفات، وليست أربع ذوات يا أولى الألباب.

بيان نشأة العقدية :

إنَّ عقيدة الثالوث الأقدس نشأت كنتيجة لتأليه مخلوقين عُظماء : يسوع المسيح والسر الغامض الروح القدس ، وادعاء صلتهما بالله كشُركاء في الثالوث الأقدس المزعوم .

الزعم ببنوة السيدِ المسيحِ لله تعالى

يعتقد النصارى أنَّ يسوع المسيح ابن لله تعالى بمعنى خاص قاصرٌ عليه ولا نظير له.

الرد من نصوص الكتاب المُقدس عند النصارى :

لقد استعمل الكتاب المقدس عندهم هذا التعبير (ابن الله) ولكن بالمعنى المجازى المقصود به (الصالح من البشر) وليس بالمعنى الذي يُشيرون إليه.

1ـ قال عيسى عليه السلام في عظته على الجبل : "طوبي لصانعي السلام لأنَّهم أبناء الله يُدعون" (متى 5 : 9).

2- قال يوحنا : "وأمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سُلطانًا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه" (يوحنا 1 : 12).

3- قال يوحنا : "انظروا أية محبة أعطانا الأب حتى نُدعى أولاد الله" (رسالة يوحنا الأولى 3 : 1).

4- وقال بولس : "لأنَّ كل الذين ينقادون بروحِ الله فأولئك هم أبناء الله" (الرسالة إلى أهل رومية 8 : 14) .

5- وقال عيسى عليه السلام : "أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (متى 5 : 44) .

6- قال لوقا : "... آدم ابن الله" (لوقا 3 : 38) .

7- ذكروا عن سليمان عليه السلام : "وهو يكون لي ابنًا وأنا له أبًا وأُثبت كرسي مُلكه على إسرائيل إلى الأبد" (أخبار الأيام الأول 22 : 9 ، 10).

الرد من الشريعة الإسلامية :

الإسلام يرفض تلك العقيدة رفضًا جازمًا ويُكذِّبها ويُنزِّه الله تعالى عنها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة 116 ـ 117] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى ... وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممَّن جعل الملائكة بنات الله ... { سبحانه} أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا { بل له ما في السموات والأرض } أي ليس الأمر كما افتروا وإنما له مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهم ، وهو خالقُهم ورازقُهم ... ومُصرفُهم كما يشاء ، والجميع عبيدٌ له وملك له ، فكيف

يكون له ولدٌ منهم ، والولد إنَّما يكون متولدًا من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ... ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ...{ كلٌ له قانتون } ... القنوت الطاعة والاستكانة إلى الله ...{ بديع السموات والأرض } أي خالقهما على غير مثال سبق ... وهذا ... إخبارٌ منه لهم أنَّ الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والدٍ بقدرتِه ...{ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون } يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنَّه إذا قدَّر أمرًا وأراد كونه فإنَّما يقول له كُن أي مرة واحدة فيكون أي فيُوجد على وفق ما أراد ... ونبَّه بذلك أيضًا على أنَّه خلق عيسى بكلمة كُن فكان كما أمره الله" أهـ.

الرد العقلي :

إنَّ نسبة الابن لله تعالى هو إنكار لكمال الله تعالى الذي لا يحتاج إلى زوجة ولا إلى ولد. وإذا كان الله تعالى قادرًا على الخلق من العدم ، وكل المخلوقات مملوكة له تعالى ، وتحت قهره وسلطانه ، فلماذا يتخذ ولدًا ؟!

الزعمُ بعقيدة الفداء (ثلاثة أقسام)

القسم الأول : الخطيئة الأصلية

قالوا : "إنَّ آدم عليه السلام أخطأ بعدم طاعته لله تعالى بعدما أكل من الشجرة ، وتوارث خطيئة آدم جميع ذريته ، فجميع الجنس البشري مولودين خُطاه" (أي عُصاه) .

الرد من نصوص الكتاب المقدس عند النصارى :

(1) "الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون" (حزقيال 18 : 20) .

(2) "لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يُقتل" (تثنية 24 : 16). أي أنَّ كل إنسان مسؤل عن أعماله الشخصية.

(3) قال عيسى عليه السلام : "دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعوهم لأنَّ لمثل هؤلاء ملكوت الله (مرقس 10 : 13). أي أنَّ الأولادَ لم يُولدوا خُطاه.

الرد من الشريعة الإسلامية :

قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر 38] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى مُخبرًا أنَّ { كل نفس بما كسبت رهينة } أي معتقلة بعملها يوم القيامة" أهـ.

والإسلام يُقرر بأنَّ كل إنسان يُحاسب على عمله لا عمل غيره ، وينظر للأولاد على أنَّهم أطهار منذ ولادتهم ، والخطيئة لا تُورَّث ولكن هي شئ يكتسبه الإنسان بأفعاله المخالفة لله تعالى . ومن الظُلم البيّن إدانة كافة الجنس البشري بخطيئةِ آدم عليه السلام وزوجته .

القسم الثاني : العدالة الإلهية

قالوا : "إنَّ العدالة الإلهية تقتضي القصاص من كل إنسان لمحو الخطيئة" (خطيئته الأصلية التي توارثها من أبيه آدم عليه السلام ، وخطاياه الخاصة) . وهذا القصاص قد يتم منه أو

من إنسان آخر نيابة عنه ، ويقتضى سفك الدماء لأنَّ سفك الدماء ضرورة لإطفاءِ سخط الرب، ويتطلب أن تكون هذه الدماء طاهرة لأنَّ الخطيئة الأصلية كانت كبيرة وتتطلب فداءً كبيرًا.

الرد من نصوص الكتاب المقدس عند النصارى :

قال يسوع المسيح : "فإنَّه إن غفرتم للناس زلَّاتهم يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي ، وإن لم تغفروا للناس زلَّاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلَّاتكم" (متى 6 : 14 ، 15).

الرد من الشريعة الإسلامية :

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء 110] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "عن ابن عباس أنَّه قال في هذه الآية : أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا { ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا } ولو كانت ذنوبه أعظم من السماوات والأرض والجبال" أهـ.

الرد العقلي:

إنَّ الله يغفر للخاطيء بمجرد توبته الصادقة ، وهذا الغُفران الحقيقي علامة رحمة من الله تعالى ، أما المغفرة بالقصاص بعد التوبة فتلك علامة نَقمة وليست رَحمة.

القسم الثالث : الكَفَّارة

قالوا : "إنَّ يسوع المسيح سُفك دمه الطاهر، وعانى عذابًا لا يوصف عند احتضاره ، ومات على الصليب طوعًا واختيارًا ليُكفِّر عن خطايا الناس ، إنَّ الخلاص الوحيد للناس كافة هو قبول يسوع المسيح فاديًا لهم ، وإلا يُعذبون في نار جهنم خالدين فيها".

الرد من نصوص الكتاب المقدس عند النصارى :

(1) وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح : أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟ فقال له : "لماذا تدعوني صالحًا ليس أحدٌ صالحًا إلا واحد وهو الله ، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا" (متى 19 : 16 ، 17) .

إذن الخلاص الحقيقي للبشر والطريق إلى الحياة الأبدية هو (احفظ الوصايا) أي الإيمان بالله وطاعته ، وليس بالكفَّارة وسفك الدماء.

(2) وكان يصلى قائلًا : يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (متى 26 : 39).

الرد من الكُتاب والمُفكرين النصارى :

(1) يقول آرثر ويجال في كتابه (الوثنية في نصرانيتنا) : "نحن لا نقدر أطول من ذلك قبول المبدأ اللاهوتي المفزِع الذي من أجل بعض البواعث الغامضة وجوب تضحية استرضائية. إنَّ هذا انتهاك لتصوراتنا عن الله بأنَّه كُلِّي القدرة وما نتصوره عنه ككُلِّي المحبة" أهـ .

(2) ونقل عن الدكتور كرودن : "إنَّه من أجل مأرب لهذه التضحية فإنَّ يسوع المسيح قاسي أشد العذاب أوقعها الله قصاصًا عليه. وهذا بالطبع وجهة نظر يتقزز منها العقل

العصري، والتي قد تكون شرط لعقيدة بشعة ليست مُنفصلة عن ميول التلذذ بالقسوة للطبيعة البشرية البدائية ، وفي الواقع إنَّ هذه العقيدة دخيلة من مصدر وثني ، وهي حقًا من أثار الوثنية في الإيمان" أهـ. (كتاب الغفران للشيخ إبراهيم خليل ص 118).

الرد من القران الكريم :

قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء 157 ـ 158] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "{ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله } أي هذا الذي يدَّعى لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء ... { وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم } أي رأوا شبهه فظنوه إياه ... { وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا إتباع الظن } يعني ذلك من ادعى أنَّه قتله من اليهود ومن سلَّمه من جُهال النصارى ، كُلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ... { وما قتلوه يقينا } أي وما قتلوه متيقنين أنَّه هو ، بل شاكين متوهمين { بل رفعة الله إليه وكان الله عزيزًا } أي منيع الجناب لا يُرام جنابه ولا يُضام من لاذ ببابه { حكيمًا } أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها" أهـ.

الرد العقلي:

المغفرة لا تكون قط بعذاب وتضحية إنسان آخر لم يقترف ذنبًا. إنَّ معاقبة إنسان بريء من أجل خطايا الآخرين هي ذروة الظلم ، وليست عدلًا قط ، كما أنَّها فكرة غير منطقية

ولا معنى لها ، مثل طبيب يحطم رأسه ليشفى المرضى لديه . لقد جاء يسوع المسيح ليُنقذ الناس من خطاياهم بتعاليمه ومبادئه وليس بالموت عمدًا من أجلهم على الصليب ، ومنحهم دمه كفارة لخطاياهم .

الخلاصة في جميع تلك العقائد :

(1) كل العقائد المذكورة آنفا تصطدم بالعقل أولًا ، وغير مطابقة لتعاليم السيد المسيح عليه السلام ثانيًا ، فضلا عن اصطدامها بالإسلام ثالثًا .

(2) هذه العقائد تكونت بعد أمدٍ بعيد من رحيل يسوع المسيح عليه السلام نتيجة للمؤثرات الوثنية. ولا شك أنَّ هذه العقائد المنحرفة قد أبعدت الديانة الحالية للمسيحيين عن الديانة الحقة ليسوع المسيح التي أُرسل بها من عند الله تعالى بدرجة كبيرة.

(3) قال الشيخ إبراهيم خليل : "فالديانة المسيحية كما أنشأها بولس إنَّما هي إحياء لتلكمو الديانات ـ يقصد البوذية والهندوكية وديانات الفرس والروم" أهـ.

وقال أيضًا : "هذه التغيرات ازداد نماؤها على إثر رحيل يسوع المسيح دون أن يترك إنجيلًا مكتوبًا ، ودون أن يخلفه رجال على مستوى المسئولية ، فانبرى في وسطهم شاؤل الذي يُدعى بولس ، وقد كان حاخام يهودي فاعتنق النصرانية لإبادتها فيما لم يستطع تحقيقه بالقوة" أهـ. (كتاب الغفران ص 7 ـ 8 ـ بتصرف يسير) .

المشكلةُ الثانية : الكتابُ المُقدَّس عند المُسلِمين والنصارى

* إنَّ كُلًا من أتباعِ الدين الإسلامي والمسيحي يدَّعون أنَّ دينَهم مُنزَّلٌ من عند اللهِ تعالى .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء 192 ـ 195].

ونقل النصارى عن المسيح عليه السلام : "لأنِّي لم أتكلم من نفسي ولكنَّ الأبَّ الذي أرسلني هو أعطاني وصيةً ماذا أقولُ وبماذا أتكلم" (يوحنا 12 : 49).

الكتابُ المُقدَّس عند النصارى :

أولًا : الدراسة التي قام بها الشيخ إبراهيم خليل أحمد :

(1) لا وجودَ لنسخةِ الإنجيلِ الموحي بها إلى يسوعِ المسيحِ في حياتِه .

(2) إنَّ المدوناتَ القديمةَ المتضمنةَ لأقوالِ يسوعِ المسيحِ والتي صُنفت على إثرِ رحيلِ يسوع المسيحِ قد فُقدت.

(3) إنَّ الأناجيل التي دُونت بين عام 70م وعام 115م على أُسسٍ من بعضِ الوثائقِ المفقودةِ تحتوي على مادةٍ قد حدثَ التصرفُ فيها بنوعٍ ما بحُريَّة ، وأنَّ كُتابَ الأناجيلِ بشعورهِم عدمُ الترددِ في تغيير وتحويرِ هذه الأناجيلِ ، لتوائمَ ما يرونَهُ أكثرَ تمجيدًا ليسوعَ المسيحِ أو لملائمةِ وجهاتِ نظرِ الأحزابِ والمذاهبِ.

(4) لا أحدَ من الكُتاب الذين دونوا الأناجيلَ عرف يسوعَ المسيحَ أو استمع حديثَه.

(5) كُتبت الأناجيلُ باللغةِ اليونانيةِ بينما كان يسوعُ المسيح يتكلمُ الآرامية.

(6) صُنفت الأناجيلُ لتثبتَ وجهاتُ نظرِ مُختلفِ الأحزابِ وأُختيرت من بينِ أناجيلِ مُتعددةٍ أخرى للتعبيرِ عن وجهاتِ نظرٍ مُختلفة.

(7) يوجدُ خلافاتٌ جسيمةٌ في مواضعِ كثيرةٍ بين مُختلفِ المخطوطاتِ الموجودةِ منذُ القرنينِ الرابعِ والخامسِ الميلادي .

(8) "الأناجيل ككُلٍ مليئةٌ بالتناقضات" أهـ. (كتاب الغفران ص 20) .

ثانيًا : قول كادوكس في كتابهِ (حياةُ يسوعَ المسيح) :

"إنهم يرونَ ذلك بلا جدوى في أيةِ محاولةٍ لإيجادِ حلٍ للحقيقةِ التاريخيةِ من بينَ الخرافاتِ والأساطيرِ التي يحتويها الأناجيلُ ، وإعادةِ بناءِ قصةِ يسوعَ المسيحِ ورسالتِه من البقايا التاريخيةِ الأُخرى " أهـ. (كتاب الغفران ص : 22) .

القرآن الكريم عند المُسلِمين :

أولًا : حفظ وتدوين القران الكريم : وهو قد مرَّ بالمراحل الآتية :

(1) تبليغُ النبي ﷺ إلى أصحابِه : فحفظوه وكتبوه على قطعٍ من الجلدِ وأشباهِ ذلك .

(2) جمعُ المصحفِ الأولِ في عهدِ أبي بكرٍ الصديق ﷺ : عهدَ بهذه المهمةِ إلى زيدٍ بن ثابتٍ ﷺ الذي جمعَ ماعندَ الصحابةِ كتابةً وحفظًا ، وقامَ بتنسيقِها وجمعِها في مصحفٍ واحد .

(3) جمعُ المصاحفِ في عهد عثمان بن عفان ﷺ : قام بتدوينِ سبعِ نسخٍ من المصحفِ ، وجهزها للتوزيعِ على الأمصارِ المختلفة في أرجاءِ العالمِ الإسلامي .

(4) حفظُ وتحفيظِ القرآنِ الكريمِ : يقومُ المسلِمون بذلك في تواصلٍ من جيلٍ إلى جيل .

ثانيًا : شهادة ويليام موير في كتابهِ حياةِ مُحَمَّد (ص 18) :

"إنَّه من المرجحِ لا يوجد كتابٌ ظل باقيًا اثني عشر قرنًا بنقائه وأصليته مثلُ القرآن " أهـ.
(كتاب الغفران ص 24)

نماذج من الكتاب المُقدس عند النصارى

أولًا : يقول الكتاب المقدس عن الله (سبحانه وتعالى عمَّا يصفون) :

(1) "ورد في سفر أرميا (17/10) أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول عنه نفسه : ويلٌ لي من أجل سَحقي ، ضربتي عديمةُ الشفاء" أهـ.

(2) "يقول كاتب المزمور (65/78) عن الله سبحانه وتعالى : فاستيقظَ الربُ كنائمٍ كجبارٍ مُعيطٍ من الخمر" أهـ. أي يصرخُ عاليًا من شدةِ الخمر .

(3) جاء في سفر ميخا (8/1) أنَّ الله عز وجل يقول عن نفسه : "من أجلِ ذلك أنوحُ وأولول ، أمشي حافيًا وعُريانًا ، أصنعُ نحيبًا كبنات آوي ونُوحًا كرِعالِ النعام " أهـ.

ثانيا : يقول الكتاب المقدس عن الأنبياء والمرسلين (وحاشاهم من هذا الإفك) :

(1) يقول كاتب سفر التكوين (20/9) : "وابتدأ نوحٌ يكونُ فلاحًا وغرس كرمًا وشربَ من الخمرِ فسكرَ وتعرى داخلَ خبائِه" أهـ.

(2) يقول كاتب سفر التكوين (30/19) : "وصعد لوطٌ من صوغر فسكنَ في الجبلِ وابنتاه معه ... وقالتُ البكرُ للصغيرة : أبونا قد شاخَ وليس في الأرضِ رجلٌ ليدخل علينا كعادةِ كلَّ الأرض ، هلُمَّ نسقى أبانا خمرًا ونضطجعُ معه فنُحيي من أبينا نسلًا ، فسقتا

أباهُما خمرًا في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ... وحدثَ في الغدِ ... وقامتْ الصغيرةُ واضطجعتْ معه ... فحملت ابنتا لوطٍ من أبيهما" أهـ.

(3) يقول كاتب سفر التكوين (34 /3) : "وخرجت دِينه ابنة لَيئة التي ولدتها ليعقوب لتنظرَ بناتَ الأرضِ ، فرآها شكيمٌ ابن حمور الحموي رئيسُ الأرضِ وأخذها واضطجعَ معها وأذلها" أهـ.

(4) يقول كاتبُ سفر التكوين (15/38) : "فنظرها يهوذا ـ ابن يعقوب عليه السلام ـ وحسبَها زانية ... فمالَ إليها على الطريقِ وقال هاتي أدخلُ عليك لأنَّه لم يعلم أنها كنتُهُ ـ زوجة ابنه ـ ... فأعطاها ودخلَ عليها وحبلتْ منه" أهـ.

(5) يقول كاتب سفر صموئيل الثاني (2/11) : "داود قام عن سريرِهِ وتمشى على سطح بيتِ الملك فرأى من على السطحِ امرأةً تستحم ، وكانتْ جميلةَ المنظرِ جدًا ... فأرسلَ داودُ رُسلًا وأخذها فدخلت إليه فاضطجعَ معها ... وحبلت المرأة ... وفي الصباح كتب داودُ مكتوبًا ... اجعلوا أوريا ـ زوجُ المرأة ـ في وجهِ الحربِ الشديدةِ ، وارجِعوا من ورائِهِ فيُضربُ ويموت " أهـ.

ثالثا : يقول الكتاب المقدس عن المسيح عليه السلام (وحاشاه من هذا الافتراء) :

(1) الحقُّ الحقُّ أقولُ لكم إنِّي أنا بابُ الخِرافِ . جميعُ الذين جاءوا قبلي هم سُراقٌ ولصوص (يوحنا 7/10) .

(2) أما أعدائي الذين لم يريدوا أنْ أملكَ عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهُم قُدامي (لوقا 19 : 27) .

(3) إنْ كان أحدٌ يأتي إلي ولا يبغضُ أباه وأمَه وامرأتَه وأولادَه وإخوتَهُ وأخواتَهُ حتى نفسَهُ أيضًا فلا يقدرُ أن يكونَ لي تلميذًا (لوقا 14 : 26) .

رابعا : نشيد الأنشاد الموجود بالكتاب المقدس

الإصحاح الأول : "نشيد الأنشاد الذي لسليمان . ليُقبلني بقُبلاتِ فمِهِ لأنَّ حُبَكِ أطيبُ من الخمر ... بين ثديي يبيت " أهـ.

الإصحاح الرابع : "ثدياكِ كخشفتي ظَبيةٍ توأمين يرعيان بين السوسن" أهـ.

الإصحاح الخامس : "كُلوا أيها الأصحاب ، اشربوا واسكروا أيها الأحباء" أهـ.

الإصحاح السابع : "دوائرُ فخذيك مثل الحُلي صنعةُ يدي صنَّاع . سُرتُكِ كأس مدورة ... قامتُكِ هذه شبيهةٌ بالنخلةِ وثدياكِ بالعناقيد ... قلتُ إنِّي أصعدُ إلى النخلةِ وأمسكُ بعذوقِها" أهـ.

الإصحاح الثامن : "شمالُه تحت رأسي ويمينُه تعانقني ...أنا سورٌ وثدياي كبُرجين" أهـ.

قلتُ : السكوتُ ها هنا أفضل من الكلام .

نماذج من القران الكريم :

أولا : قال تعالى عن نفسه : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر 23] .

ثانيا : قال تعالى عن رسله : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُسل ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء 165] .

ثالثا : قال سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم 30 ـ 32] .

رابعا : قال تعالى عن العلاقة الزوجية : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف 189] .

وقال أيضًا : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم 20] .

المشكلة الثالثة : أصول التعامل بين المُسلِمين والنصارى

وهذه يحكمها محورين أساسين :

المحور الأول : التعامل بين الفريقين على أساسِ مُشكلةِ العقائدِ الرئيسية في الديانةِ المسيحية المحرَّفة والتي يرفضها الإسلام ، ومشكلةِ الكتابِ المقدسِ عندهما .

فالنصارى تُكذِّب نبيَّ الإسلامِ والقرآنِ الكريمِ ، ويُكفِّرون المسلِمين كنتيجةٍ حتميةٍ لذلك ، أمَّا المسلِمون فيُكفِّرون النصارى ويرمونهم بالغلوِّ في الدينِ ، ويرفضون عقائدَهُم المنحرفة ، ويعتقدون أيضًا بتحريفِ الكتابِ المقدسِ عندَهم.

هذه هي الحقيقةُ المؤكدةُ بلا رتوشٍ ولا تمويهٍ ، وهي حقيقةٌ مُثبتةٌ في الكتابِ المقدسِ عند كِلا الفريقينِ على زعمِهم ، ولا شك أنَّ أي محاولة لتجاهلِ ذلك ستبوءُ بالفشلِ حتمًا ، ومن الأفضلِ للجميع مواجهةِ الحقائقِ بدلًا من محاولةِ طمسِها بلا جدوى .

المحور الثاني : كُلًا من المسلِمين والنصارى يعاملُ الآخر ـ على أفضلِ الأحوالِ ـ وفقَ تعاليمِ دينِه . فمثلا دينُ الإسلام يُحرِّم الولاءَ للنصارى ، ويأمرُ بقتالِهم حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون ، وكان من هدى النبي ﷺ في القتال أن يُخيرَ أهلَ الكتابِ بين ثلاثٍ : الإسلامِ أو الجزيةِ أو القتالِ ، فإن دخلوا في الإسلام طواعيةً فخيرًا فعلوا ، وان طلبوا البقاء على دينهم فعليهم دفعُ الجزيةِ بشروطِها ، ولهم البرُ والقسطُ وإقامةُ شعائرِهم ويدخلون في عهد أمان مع المسلِمين (عهد الذِّمة) . وإن رفضوا الحلَّ الأولَّ والثاني فهم أهلُ حربٍ ، وليس للحربي إلا القتالَ ، ويجبُ على المسلِمين الالتزام بدينهم ، ولا غرابةَ في ذلك .

المبحثُ العاشر: الدعوةُ والعودةُ إلى الله تعالى

الدعوة إلى الله تعالى

لا شك أنَّ أفضلَ طريقٌ للدعوةِ إلى اللهِ تعالى يكونُ بمنهجِ الرُسلِ :

(1) دعوةُ الناسِ إلى الأصلِ العامِ لدينِ الإسلامِ وهو عبادةُ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له. وهذا كما قالت الرُسل لأقوامهم : اعبُدُوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُه ـ اعبُدُوا الله ولا تشركوا به شيئا ـ اعبُدُوا الله واجتنبوا الطاغوت. وأيضًا الدعوةُ إلى الإيمانِ بكلِّ الرُسلِ لأنَّهم أصحابُ دينٍ واحدٍ، وبيانُ أنَّ الله تعالى لا يقبلُ غيرَ الإسلام .

(2) الحثُّ على النظرِ والتدبرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ للاهتداءِ إلى اللهِ تعالى.

(3) بيانُ خصائصِ الربوبيةِ والأُلوهيةِ ، وإثباتُ تفردِ اللهِ تعالى بهما ، وبيانُ خلو المعبوداتِ من دونِ اللهِ تعالى من أيِّ خاصيةٍ منهُما ، والتأكيدُ على أنَّ الربوبيةَ هي سببُ استحقاقِ الأُلوهية.

(4) الاستدلالُ على المخالفين بما يُقيمُ الحُجةَ عليهم ويقطعُ عُذرَهم:

ـ فمن شكَّ في وجودِ اللهِ تعالى خُوطب بالأدلةِ العقليةِ بما يجدُ إجابتَه في نفسهِ وفي سائرِ المخلوقاتِ حوله .

ـ ومن ادَّعى الربوبيةَ طُلب منه ما يُظهِر عجزَهُ ويكشف كذبَهُ كخلقِ أحقرِ المخلوقاتِ أو امتلاكِ الأمرِ النافذِ على نفسهِ التي بين جنبيهِ !!

ـ ومن زعم أنَّ لله تعالى ابنًا ، أُستدِل عليهِ باستحالةِ تعددِ الأربابِ والآلهةِ ، وطُولب بالبرهان على دعواه ، حيثُ لابرهان !!

ـ ومن أشركَ باللهِ عز وجل : سُئلَ عن الربوبيةِ العامةِ ثمَّ الخاصةِ ، فإن لم يُقرَّ بهما أُقيمت عيه الحُجةُ بحسبهِ . وإن أقرَّ بهما ، فيُطلب منه أنَّه يلزمَهُ أن يعبدَ اللهَ وحده ، ووبّخ على شِركهِ بالله تقدست أسماؤه .

(5) البِشارةُ لأهلِ الإيمانِ والتقوى في الدنيا والآخرة .

(6) النذارةُ لأهلِ الكُفرِ والشركِ في الدنيا والآخرة .

العودةُ إلى الله تعالى

أيُها المسلِمون في كل مكان :هل من عودةٍ إلى اللهِ تعالى ؟ ألا تشتاقون إلى نصرٍ من الله وفتح قريب ؟

يقول الحق جلَّ وعلا : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد 16] .

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يقول تعالى أما آنَ للمؤمنين أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ اللهِ أي تلين عند الذكرِ والموعظةِ وسماعِ القرانِ فتفهمُه وتنقادُ له وتسمعُ له وتطيعُه ...{ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطالَ عليهمُ الأمدُ فقست قلوبُهم } نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتابَ من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاولَ عليهم الأمدُ ، بدَّلوا كتابَ اللهِ الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلا ونبذوه وراءَ ظهورهِم وأقبلوا على الآراءِ

المختلِفة والأقوالِ المؤتفِكة وقلَّدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فعند ذلك قستْ قلوبُهم فلا يقبلون موعظةً ولا تلينُ قلوبُهم بوعدٍ ولا وعيدٍ { وكثيرٌ منهم فاسقون } أي في الأعمال ، فقلوبُهم فاسدةٌ وأعمالُهم باطلة" أهـ.

ورغم كلِّ الصعابِ والأشواكِ والمخاطرِ التي تُحيطُ بالأُمة ، ورغمَ الظلامِ الحالكِ الذي كاد يعمُّ كلَّ شيء ، فإنَّ وعدَ اللهِ آتٍ لا محالة ، ولابدَ من فجرٍ جديد .

قال تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء 81].

قال ابنُ كثير رحمهُ الله :" تهديدٌ ووعيدٌ لكفارِ قريش فإنَّه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مِريةَ فيه ولا قِبل لهم به ، وهو ما بعثَهُ الله بهِ من القرآنِ والإيمانِ والعلمِ النافعِ ، وزهقَ باطِلُهم أي اضمحلَ وهلك ، فإنَّ الباطلَ لا ثباتَ لهُ مع الحقِ ولا بقاء" أهـ.

قال سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة 32 ـ 33].

قال ابنُ كثير رحمهُ الله : "يريدُ هؤلاء الكُفَّارُ من المشرِكين وأهلِ الكتاب{ أن يُطفئوا نور الله } أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهُدى ودينِ الحقِ بمجردِ جدالهِم وافترائهِم ، فمثلُهُم في ذلك كمثلِ من يريدُ أن يُطفيءَ شعاعَ الشمسِ أو نور القمرِ بنفخِه ، وهذا لا سبيلَ إليه ، فكذلك ما أُرسلَ به رسولُ الله ﷺ لابد أن يتمَّ ويظهرَ ... { ويأبى اللهُ إلا أن يُتم نور ولو كره الكافرون } ... { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق } ... { ليُظهرَه على الدين كله } أي على سائر الأديان ... قال الإمام احمد... عن تميم الداري

ﷺ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ليبلُغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ ؛ (المدر هو البناء والوبر هو الصوف) إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزًا يعز الله به الإسلام وذلًا يُذل اللهُ به الكُفر)" أهـ.

فاللهم رُدنا إلى دينِك ردًا جميلًا .

وهذا ندائي إلى كلِّ حيرانٍ وباحثٍ عن الحقيقة :

* جرِّد قلبَكَ من الهوى وأزِل الغشاوةَ من أمام عينيك وافتح عقلكَ وقلبكَ لنورِ الحقِّ . إنِّي ـ بفضل الله تعالى ورحمته ـ وضعتُ أمامكَ مقاييسَ الربوبيةِ والأُلوهيةِ لتُفرِّق بين المعبودِ الحقِ والمعبوداتِ الباطلةِ المزيفةِ ، لبيانِ بُطلانِ عبادتها من أيسرِ طريقٍ . ولا شكَ أنَّ تلك المقاييسَ مُحايدةٌ ومُجردةٌ لا تُحابي أحدًا ولا تظلمُ أحدًا ، فاجعلها المصباحَ الذي يُضيءُ لك الطريقَ حتى تصلَ إلى بُغيتِكَ المنشودة .

* واعلم أنَّ الحقَّ أحقُ أن يُتَّبع ، وأنَّ الله تعالى أحقُ أن تخشاهُ ، وأنَّ الأمرَ جدٌ وليس بالهزلِ ، فإنَّما هي نارٌ أبدًا أو جنةٌ أبدًا .

* واعلم أنَّه بالنيةِ الصادقةِ والعزمِ المؤكدِ والتجردِ التامِ والجُهدِ المتواصلِ ، ستحصل على نور الهداية بإذن الله تعالى . والله غالبٌ على أمرِهِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايعلمون .

هذا ماأردتُ بيانه ، فإن كان فيه من خيرٍ فالفضلُ للهِ وحده ، وإن كان فيه من زللٍ ، فمني ومن الشيطان .

اللهمَّ لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا / اللهمَّ اجعلهُ خالصًا لوجهك الكريم / اللهم اجعلهُ صدقةً جارية وعلمًا يُنتفع به . آمين آمين .

بيت المقدس